



الطريق إلى
الجنة
هو
الطريق
الذي
لا
يوجد
في
الخرائط



دار الشروق

أرجوك لاتفهمنى

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الطبعة الثالثة

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي بويه المصري -

رابعة العبدوية - مدينة نصر

ص. ب. ٣٣ البانوراما - تلفون: ٤٠٢٣٣٩٩

فم - أكسس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

عبد الوهاب مطاوع

أرجوك لاتفهمنى

دار الشروق

قل لى .. من فضلك !

- ما هو أخرج موقف فى حياتك ؟

- أجيبك ولا تغضب ؟ - نعم .

- هو هذا « الموقف » الذى تسألنى فيه هذا السؤال الساذج الذى
اسمعه دائماً من كل من يجرى معى حديثاً صحفياً لمجلة مدرسية أو
جامعية !

ولست أعرف من هو أول من صاغ هذا السؤال البليد . فأصبح من
بعده تقليداً لكنى استقبل كثيرين من طلبة جماعات الصحافة فى المدارس
والكليات ولا بد أن أسمع هذا السؤال وأفكر فيه فتغيب عن ذاكرتى لحظتها
كل ما شهدته فى حياتى من مواقف مثيرة للخرج - ولا أجد ما أجيب به
سائلى فإذا انصرف عنى . . قفزت إلى خاطرى كل المواقف المخرجة ليس فى
حياتى فقط . . بل وفى حياة بعض الشخصيات التاريخية التى قرأت عنها
أيضاً !

والحق أنى اعتبر اللحظة التى يتقلب فيها صديقان أو حليفان سابقان
كل منهما على الآخر فيتواجهان بالعداوة السافرة والصراع . . من أخرج

المواقف في حياة البشر . لهذا أقف عند تفاصيل هذه اللحظة الحرجة واستعيدها متفكراً أكثر مما أتوقف أمام شيء آخر والتخيل مثلاً حال يوليوس قيصر بطل روما قبل الميلاد وصانع انتصاراتها والذي ما زال شهر يوليو يحمل اسمه حتى الآن ، حين تأمر عليه أعداؤه واغتالوه في مجلس الشيوخ سنة ٤٤ قبل الميلاد ولا أتوقف عند أسباب المؤامرة ولا وجه الحق فيها بقدر ما أتوقف أمام اللحظة التي انهارت فيها خناجر الأعداء على قيصر العظيم فاكتشف لذهوله أن من بينها خنجر «صديقه» ماركوس بروتس . . ولم توجعه طعنات الأعداء بقدر ما أوجعته طعنة الصديق . . ثم جاء شكسبير بعد عشرات القرون فليخص ذلك في عبارة وضعها على لسان قيصر في المسرحية التي تحمل اسمه فترجمت كل مرارة الدنيا تجاه غدر الأصدقاء وأصبحت مثلاً بعده هي عبارة : « حتى أنت يا بروتس ! »

هذه المواقف الحرجة حقاً هي التي تثير التأمل والتفكير . . مواقف اللحظة التي تلتقي فيها عين الغادر بعين المغدور به وعين الجاني بعين الضحية . . أما المواقف الأخرى فتدخل في باب الطرائف أكثر منها في أى باب آخر . . ومن بين العديد منها اذكر كثيراً ذلك الموقف العجيب الذي وجد نفسه فيه أحد علماء الزيلولوجيا « علم الحيوان » حين انساق وراء طبيعة بعض المتخصصين في التحدث عن تخصصاتهم كأنها كهنوت لا يعرف أسرارهم أحد غيرهم فاندفع ذات مرة في جلسة بالمجمع اللغوى يتحدث مع العقاد العظيم ويردد من حين إلى آخر هذه العبارة كلما أراد أن يقول شيئاً : عندنا في الزيلولوجيا ! ففوتها العقاد مرة فلما كررها انفجرت براكين غضبه ، وقال له في ثورة هائلة : عندكم يعنى أيه يا . . هل تريد أن

تقول إننى لا أفهم أحسن منك فى الزيولوجيا !!
وليس بعيداً أن يكون العقاد صادقا فى ذلك . . لكن كان الله فى عون
عالم الزيولوجيا الذى لم يقصد إهانة العقاد لكنه وضع نفسه فى هذا الموقف
الحرج حين غفل عن مراعاة حساسية الكاتب العظيم وفات عليه أن ما
يجوز أمام البسطاء لا يجوز أمام العباقرة من أمثال العقاد وما أكثر ما أتذكر
قصة عالم الزيولوجيا هذا . . وبعضهم يحدثنى بلهجة المتعالم عن فرع
محدود من فروع الثقافة يتصور أنه كيميائ لا يحيط بعلمها غيره فأشفق
عليهم فى «سرى» من مصير عالم الزيولوجيا إذا صادفوا شخصا انفعاليا
شديد الاعتزاز بنفسه كالعقاد . . وأكتم ضيقى بما يقولون وأواصل الصبر
والاحتمال .

وأحسب من المواقف المحرجة أيضا موقف ذلك الشخص سليط
اللسان الذى كان نائما فى أحد مساجد العراق حين عثر به أبو العلاء
المعري المحروم من نعمة البصر فانساق وراء شياطين الغضب وصاح
فيه : من هذا الكلب الذى عثر بى ؟ . فلم يغضب المعري الحكيم ولم
يبادلته سبابا بسباب وأنها أجابة بهدوء : الكلب من لا يعرف للكلب
سبعين اسما !

وكان المعري يعرف للكلب سبعين اسما فى العربية . . وشأته
جاهل . . فكانت « كبسة » للرجل ولكل من يتناول على من هو أكثر منه
علما وفضلا .

أما موقف الخليفة المنصور مع أبى مسلم الخراسانى الذى كان له أكبر
الفضل فى قيام الدولة العباسية فليس من قبيل المواقف الحرجة بقدر ما هو

من الأعياب السياسة وتضارب المصالح وصراعات القوة . . ومع ذلك تبقى اللحظة التي كشف فيها المنصور عن غدره بحليفه نموذجاً للمواقف الحرجة على مر التاريخ فقد استدعاه المنصور بعد أن أخذ له ثورة عبد الله ابن علي ثم استشعر أبو مسلم نية الغدر به من المنصور فتوجه بجيشه إلى خراسان حيث لا تطوله يد المنصور لكن أحد عملاء المنصور نجح في اغرائه بالتوجه إلى عاصمة الخلافة وتصفية ما بينهما . . واستجاب أبو مسلم وتوجه إليه ولقيه المنصور فأحسن استقباله . . وظل يستقبله كل يوم بالحفاوة إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة . . فاستدعاه إلى خيمته وراح يعاتبه بصوت عال ثم صفق بيده فخرج من وراء مجلس أبي مسلم رجال المنصور شاهرين السيوف . وأدرك الخراساني المصير فنقل عينه بينهم وبين الخليفة ثم قال له : يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك . فأجابه المنصور : وأى عدو أعدى لي منك ! ثم أشار لرجاله فأنهالوا عليه بالسيوف ولم تطل لحظة اللقاء العيون بين الغادر والمغدور به طويلاً !

وعلى حين يبعث هذا الموقف على التأمل الحزين في تقلبات الأيام يبعث موقف العظيم عمر مع الأعرابي الجلف الذي احتكم إليه على التأمل الباسم والاعجاب المتزايد بالخليفة الذي استن سنة تنحى القاضى إذا استشعر الحرج .

فقد أهداه ذلك الأعرابي رجل « جزور » أى رجل ناقة فتقبلها منه وطعم منها ثم فوجئ به بعدها بأيام يحتكم إليه في خلاف بينه وبين خصم له ووقف مع خصمة وراح يشرح تفاصيل الخلاف . . ويقطع حديثه بين كل فقرة وأخرى بقوله : إفصل بيننا كما تفصل رجل الجزور ! فعزف عمر

عن القضاء بينهما وقال لعل بن أبي طالب : ما زال يرددها حتى كدت أقضى له . . فاحكم أنت له يا أبا الحسن . وتنحى له عمر عن القضية بعد أن ألقى على الإنسانية درسًا في حياد القاضي وبعده عن أى شبهة للحرج ولو كانت رجل جزور !

ولأن عدو الإنسان الأول هو لسانه إن لم يعقله ويتحكم فيه ، فقد كاد الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي «١٨٦٣ - ١٩٣٦» أن يفقد حياته بسبب زلاقه لسانه وإنسياقه وراء فنون البلاغة . فقد كان عضواً في مجلس «المبعوثان» الذي يضم ممثلي الولايات التركية عن العراق في أواخر القرن الماضي وفي إحدى جلساته نوقشت ميزانية وزارة الحرية فكان من بين بنودها مبلغ ضخيم يخصص لقراءة صحيح البخاري في سفن الأسطول للتبرك به ! فوقف الزهاوي معترضاً ، وقال إنه يفهم أن يكون هذا المبلغ في ميزانية وزارة الأوقاف أما في ميزانية الحرية فأمر غير مفهوم . . لأن الأسطول يمشى بالبخار . . لا بالبخاري !

ورغم سلامة رأى الزهاوي إلا أن الجناس بين البخار والبخاري أعطى الانطباع بأنه يستهزئ بصحيح البخاري الذي يروى الحديث الشريف فثار عليه المجلس وشغبت عليه العامة وتعرض بسبب هذا الموقف ومواقف أخرى مشابهة لغضب الرأي العام في بلاده حتى لزم دأره في بعض الفترات خوفاً على حياته من الخطر !

والدرس هو أن كل شيء يمكن أن يقال لكن إذا احسن قائله التعبير عن رؤية بغير الاساءة لأحد أو التعريض بالمقدسات أو استناره مشاعر

الآخرين . إذ لولا انسياقه وراء الجناس بين البخار والبخارى لما ثار عليه أعضاء المجلس .

ومن ذلك كثير وكثير في الحياة اليومية . . ومنه حكاية الشاعر البائس إمام العبد مع شاعر النيل حافظ إبراهيم الذي كان يعطف عليه ويواسيه من حين لآخر بهاله القليل . . ثم استسلم إمام العبد لسلطة لسانه فبلغ حافظا عنه أنه يقلل من شأنه كشاعر عظيم ويقول فيما يقول : أنا الذي خلقت حافظ إبراهيم . . ثم لم تمض أيام حتى جاء إلى حافظ وهو في مجلسه بالمقهى يطلب منه مالا فنظر إليه حافظ باسم ثم قال : : أنا يا مولاي . . كما خلقتني ! وضحك الأصدقاء . . وكسب حافظ الجولة ببلاغته وكلمته التي تحمل الكثير من العتاب واللوم . . والاصرار على أنه لن يدفع له نقودا ! وعلى الجاحد تدور الدوائر !

أما موقف معاوية بن أبي سفيان مع ذلك السفية الذي تراهن مع صديق له على أن يستثير غضبه وهو الداهية المعروف بحلمه فانه يتعدى حدود المواقف المحرجه إلى حدود سوء الأدب فقد اتجه إلى معاوية بعد أن انتهى من صلاته بالمسجد ووضع يده على لحمه البدين وسط ذهول الجميع ثم قال له بوقاحة : مرحى يا معاوية لقد ضاهيت أمك هنداً في لحمها وشحمها ! وجلس الحاضرون أنفاسهم انتظارا لما سيفعله به معاوية . . ففاجأهم بقوله له بصوت هادئ : رحمها الله رحمة واسعة . . لم تكن كذلك في أخريات أيامها ! ثم انصرف عنه في هدوء «وباخ» السفية وكسب معاوية بحلمه احترام الحاضرين .

أما حكاية مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد السابق مع كاتب

خطبه فتكاد تكون نموذجاً للموقف الحرج كما يتصوره الآخرون . . فقد كان في رحلة إلى الوجه القبلى . . وفي كل مدينة يتوقف ويلقى خطبة يكتبها له شاعر صحفى كان معروفاً بخفة دمه ثم دعى النحاس للغداء مع مرافقيه في إحدى القرى ولم يكن في خطبته أن يلقي خطاباً فيها ثم فوجئ بمضيفيه يطلبون منه أن يؤخر سفره ليلقى خطاباً جديداً في الأنصار المتجمعين خارج البيت . وبتلقائية كانت معروفة عن النحاس قال لمن حوله وهم وقوف في شرفة الفيلا : لا مانع . . قولوا «للحمار» الذى يكتب لنا الخطب أن يكتب خطبة جديدة بسرعة !

ففوجئ بالشاعر الصحفى بين الواقفين حوله . . وقد سمع ما قاله يحببه بسرعة بديته : الحمار جاهز . . يا دولة الباشا ! وأغرق الجميع في الضحك وكان أعلاهم ضحكا النحاس نفسه والشاعر الكاتب . . وانتهى الموقف المخرج بدعابة منه لكاتب خطبه واعتذار له بتقيل رأسه !

من المواقف المخرجة التى أصبحت مثلاً في كيفية التخلص من الحرج بسرعة البديهة والذكاء حكاية المحامى المصرى الذى دخل إلى قاعة المحكمة في الثلاثينيات من هذا القرن وراح يترافع وهو غائب الدهن تماماً لمدة نصف ساعة ضد موكله وليس عنه ووكيله وأهل المتهم يحاولون عبثاً أن يلفتوا نظره إلى أنه محامى ابنهم وليس محامى خصمه حتى تنبه وتوقف لحظات والعرق يتجمع فوق جبهته ثم قال بهدوء : هذا كل ما يستطيع زميلى محامى الخصم أن يقوله ضد موكلى . . والآن نبدأ في تفتيده ! ثم انطلق بفند كل ما قال !

وفى رواية للروائية الفرنسية فرانسواز ساجان ، أرادت سيدة أن تخرج زوج صديقتها الذى يغازلها فقالت له عن زوجته : جوستين ظريفة . . فأجابها على الفور جوستين ظريفة وأنت ظريفة وأنا ظريف واعتقد أننا جميعاً قوم فى غاية الظرف ! . . وتخلص الوغد من الخرج بهذه الزلاقة فى اللسان!

أما ذلك المواطن الألمانى الذى كان يجلس فى أحد المطاعم وفتت نظرة شراهة الفيلسوف الألمانى شوبنهاور فى الطعام فراح ينظر إليه بدهشة فقد وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه حين تنبه لنظراته شوبنهاور وفاجأه بقوله : أعلم أنك مندهش لأنى آكل ثلاثة أمثال ما تأكل . . لكن لا تنسى أيضاً أن لى مخاً يزن ثلاثة أمثال مخك . . ! وكانت « كسفة » علمتنا ألا نتلصص بأنظارتنا على الآخرين وألا نطيل النظر لهم وهم فى شئونهم الخاصة وإلا نالنا منهم ما نال هذا المواطن من لسان الفيلسوف الحاد !

كما علمتنا قصة الروائى الفرنسى بلزاك مع معاصره العظيم الكسندر ديباس الأب ألا نحاول التقليل من شأن جهد أى إنسان لكيلا ينالنا منهم ما نال بلزاك من ديباس فقد قال بلزاك له ذات مرة : حين تحف موهبتى سأبدأ فى كتابة المسرحيات ! مستهيناً بذلك بالفن المسرحى الذى يكرس له ديباس معظم جهده ، فإذا بالأديب الجامح يجيبه بلا تردد :

-إذا فابدأ فى كتابة المسرحيات من الآن .

وكانت واحدة بوحدة . . والبادى أظلم . . والمسامح أكرم ومن سوف يعفينى من مثل هذا السؤال البليد فى حديث صحفى يجريه معى أفضل وأعقل . .

فعسى الله أن يخفف عن كل إنسان حرجه . . . ويحقق لكل إنسان
أمنيته . . . ليعيش الجميع في سلام وأمان بلا حرج ولا مواقف محرجة إن شاء
الله . وإلى أن يتحقق ذلك . . . قل لي من فضلك : ما هو أخرج موقف في
حياتك ؟

أرجوك لا تفهمنى !

عفوا إن بدا حديثى هذا الأسبوع مضطربا ، فأنا أكتبه وأنا صائم ، لكن لا بأس بمحاولة الكتابة بلا قهوة ولا سجائر فالإنسان قادر دائما على التكيف مع الظروف الجديدة ، وبسبب قدرته هذه ومرونته استطاع أن يتغلب على ظروف الطبيعة القاسية وينجو من الانقراض ، فى حين عجز الديناصور عن التكيف مع الطبيعة فانقرض .

ولأننى لست ديناصورا فإننى احاول دائما تطويع نفسى لكل ظروف الحياة وقبولها والتعايش معها .

صحيح أن ذهنى مشتت . . وتركيزى ضعيف ، وإننى أكتب الجملة الواحدة فى عشر دقائق وأنه من المحتمل اذا استمررت فى الكتابة بهذا المعدل أن تفوتنى صلاة العيد قبل أن أنهى هذا المقال . . لكن من قال إن الحياة رحلة خالية من العناء ؟

ليس مهما كم من الوقت سوف يستغرقه هذا المقال . . وإنما المهم هو أن أثبت لنفسى أولا أنى قادر على الكتابة أثناء الصيام . . وأن يصل هذا المقال إلى غايته حتى وإن بدا لى أنا شخصا غير مفهوم . . وما خاب سعى قارئى ليبين يحاول أن يفهم ما لا أفهمه أنا .

عفوا انتظر لحظة حتى اقسّم صفحات هذا « البلوك نوت » الذى أكتب فيه إلى نصفين بالطول . . تسألنى بالطبع ولماذا بالطول وليس بالعرض وأجيبك بأن السبب هو إن عرض صفحة « البلوك نوت » الطبيعى لا يتناسب مع حالة تشتت الذهن وبلادة العقل التى أعانيها الآن . . وقد لاحظت أنى ما أن أصل إلى نهاية السطر حتى أكون قد نسيت بدايته ، فأتوقف للنظر إلى بداية السطر واسترجاعه ، أما فى نصف الصفحة الطولية فإن النهاية لا تبتعد كثيرا عن البداية فلا تغيب عن ذهنى ومع ذلك فلا بأس من قسمة النصف إلى ربعين بالطول إذا لاحظت على نفسى أن حالة النسيان قد استمرت معى بعد التقسيم . . بل وماذا يمنع إذا اقتضت الضرورة من قسمة الربع إلى ثمنين حتى ولو تحول البلوك نوت إلى شرائط طويلة لا يتسع كل شريط منها إلا لكلمة واحدة؟ . . أليس للإنسان عقل يتصرف به فى مواجهة كل ما يعترضه من مشكلات ؟ وأليست هذه المرونة فى التفكير بالذات هى التى حمته من الانقراض عبر ملايين السنين .

ان الكلمة المكتوبة مسئولية خطيرة ولابد من توفير كل الوسائل الممكنة للاحتشاد الذهنى لها حتى لا تطيش كلمة عن مكانها فتغير المعنى أو تحقق أثرا خاطئا . فلقد تسببت عبارة طائشة أضافها عبد الله بن المقفع إلى عهد الأمان الذى كُلف بكتابته بين الخليفة المنصور العباسى وعمه عبد الله بن على فى قتل ابن المقفع شر قتله . . لقد كان عبد الله بن على عم المنصور واليه على الشام وخرج عليه فسير إليه المنصور الجيوش وهزمه وهرب عبد الله إلى أخويه فرفضوا تسليمه إلى المنصور إلا إذا كتب له بالأمان

فوافق المنصور وترك لها كتابة ما يريدان وكان ابن المقفع كاتب احدهما فكلفه بكتابة عهد الأمان فكتبه على خير ما يرام لكنه أضاف في نهايته عبارة يقول فيها أن الخليفة إذا نقض عهده وأخلف وعده فإن نساءه وجواريه يصبحن محررات عليه وغلماؤه وعبيده يصبحون أحرارا ويصبح هو خارجا على الإسلام وتستباح أمواله وتسقط بيعته ويحق قتله !

وقرأ المنصور هذا الكلام واستشاط غضبا ورآه خروجاً عن آداب مخاطبة الملوك فسأل عن كاتبه وعرفه وأمر واليه على البصرة أن يؤدبه ، لكن الوالي كان يكره ابن المقفع أكثر فطلبه وأمر باشعال نار حامية وراح أعوانه يقطعون من جسمه جزءا جزءا ويلقونه في النار حتى مات وانتهى هذه النهاية الأليمة المحزنة . . .

فترى كم كان «عرض» الصفحة التي كتب فيها ابن المقفع هذا العهد حتى نسى «بدايتها» التي يتحدث فيها عن خليفة ينبغي ألا يخاطبه بمثل هذه الكلمات الجارحة ؟

لقد كان ابن المقفع حكيما أدبيا جم الأدب وشهد له بذلك معاصروه حتى لقد سئل مرة : من أدبك ؟ فقال : نفسي . . كنت إذا رأيت من غيري حسنا أتيت . . وإن رأيت قبيحا أتيت ! ومع ذلك لم يغنه الحذر عن القدر واستجاب ذات مرة لشطحات قلمه فراح ضحية لها .

والفيلسوف العربي ابن رشد ألم تساهم كلمة واحدة بل حرفان فقط من كلمة واحدة في محتته ؟

لقد كان الفقهاء ينقمون عليه آراءه ودراساته الفلسفية وينقمون عليه أكثر منزلته لدى ملك المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري

أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور ، ويرمونه بالخروج على أحكام الإسلام الصحيحة ، ورغم عطف الخليفة عليه لم ير بدا في النهاية من الاستجابة للفقهاء مع كثرة تأويل آراء ابن رشد ، فدعاه الخليفة إلى ما يشبه المحاكمة ووجه له الفقهاء الاتهام ودافع ابن رشد عن نفسه ، وانتهى الأمر بإدانته الفيلسوف وقضى الخليفة بمعاقبته بالنفى من قرطبة واعتقاله في بلدة قريبة منها وراعى في ذلك سنه وصحته وسابق مودته عنده وحرقت كتب الفيلسوف فيمن حرقت كتبهم ممن حوكموا معه في هذه الحملة . . ومع ذلك فلقد أكد المؤرخون أنه كان لغضب المنصور أسباب أخرى إلى جانب ضغط الفقهاء . . ينتمى بعضها إلى هفوات اللسان . . والقلم ، منها إنه كان يخاطب المنصور دائما بقوله «تسمع يا أخى» فكان المنصور يضيق بجراته في مخاطبته اعتمادا على سابق منزلته عند أبيه ثم عنده ، ومنها وهى الأهم عبارة وردت في كتابه عن الحيوان اعتبرت عيبا في الذات الملكية حين كتب ابن رشد مشيرا إلى المنصور في باب الزرافة : ورأيت الزرافة عند ملك البربر !

ثم دافع ابن رشد عن نفسه فيما بعد بأن العبارة الصحيحة هى : عند ملك البرين وليس البربر وإن ما وقع هو تحريف من الناسخ على غرار الأخطاء المطبعية التى تقلب المعانى الآن في الصحف والمجلات . . وشفع له آخرون فعفا عنه بعد عامين تقريبا في النفى واسترد حظوته لدى المنصور لكن العمر لم يمهله طويلا فمات بعدها بحوالى سنة .
فهل رأيت ما قد تفعله أحيانا «الكلمة» المحرفة . . أو اعتياد اللسان على عبارة معينة . . في مصائر بعض البشر ؟

بل ألا ترى أحياناً كيف تجمع كلمة عابرة أو طائشة بين مصير اثنين من البشر أو تفرق بينهما ؟

إن في مذكرات شارلى شابلن قصة غريبة عن زواجه الأول . . تروى انه تعرف في «شاليه» أحد أصدقائه الصيفى على ممثلة مبتدئة جميلة اسمها ميلوريد هاريس جاءت بصحبة صديق ثم اختلفت معه فطلبت من شابلن ان يوصلها بسيارته للمدينة وأوصلها وعاد إلى بيته فإذا بجرس التليفون يدق وصوتها يسأل بسداجة : فقط أردت أن أعرف ماذا تفعل ؟ وانتهى الحديث بدعوته لها على العشاء في المدينة . . وانتهى الأمر عند هذا الحد وكان الانطباع الذى تركته في نفسه هو إنها فتاة صغيرة نزقة وبعد عدة أيام لم تخطر خلالها في باله قال له سكرتيره إنها طلبته في التليفون ثم كتب شابلن بعد ذلك بأكثر من ٢٥ سنة في مذكراته هذه الكلمات : ولولا أنه عندئذ أدلى لى بملاحظة معينة لكان الاحتمال الأكبر هو ألا أهتم برؤيتها مرة أخرى ، لكن ما حدث هو أنه ذكر لى أن سائق سيارتى أخبره أننى حين غادرت الشاليه الصيفى لصديقى منذ أيام كانت معى «أجل فتاة شاهدها في حياته» فاستثارت هذه الملاحظة غرورى وكانت البداية ! وكانت البداية فعلاً لقصة زواج فاشلة كان الزواج فيها بالنسبة لزوجته مغامرة مثيرة كالفوز في مسابقة الجمال ولم يستطع شابلن أبداً أن ينفذ إلى عقلها الموشى على حد تعبيره الجميل بشرائط ملونة من الحمق ، وترددت الشائعات حولها ونقل له صديقه دوجلاس فيريانكس ما يتردد عنها قائلاً : اعتقد أنك يجب أن تعرف ! فكانت النهاية لزواج لم يكن مقدراً له أن يقع من البداية لو لم ينسحب سكرتير شابلن من لسانه وينقل له عبارة سائق

سيارته الطائشة وهو يبلغه بأن تلك الفتاة النزقة قد طلبته في التليفون .
وما أعجب الإنسان الذي قد يقتنع أحيانا بها لم يقتنع به من قبل لمجرد
أن الآخرين قد أبدوا إعجابهم به !

هذا مثال للعبارة التي قد تتسبب أحيانا في الجمع بين شخصين لم يكن
مقدرا لهما أن يجتمعا . . والإنسان قد يتوقف أحيانا عند كلمة أو عبارة
تأتى عرضا على لسان إنسان آخر يلتقى به لأول مرة فتكون سببا في أن
يقترّب منه أو يبتعد عنه . . والعبارة الواحدة قد تصاغ بطريقة معينة فتقرب
بين النفوس والقلوب وقد تصاغ بطريقة أخرى فتشعل نارا حامية بينها ،
وفي مذكرات الدكتور سيد أبو النجا «ذكريات عارية» مثال طريف على
ذلك ، فلقد كان يعمل مدرسا بكلية التجارة بجامعة الإسكندرية حين
كان اسمها جامعة فاروق في الأربعينيات وكان رئيسها هو طه حسين وكان
يعمل معه أستاذ مساعد فكتب طلبا إلى رئيس الجامعة الدكتور طه حسين
ووقعه بعبارة «أستاذ القسم» اعتمادا على أن القسم كان بلا أستاذ في ذلك
الوقت لكن طه حسين لم يرض على انتحاله هذا اللقب الجامعي فرد عليه
بخطاب يقول له فيه : « هذا احتيال لا يليق بالعلماء ! » .

فغضب الأستاذ المساعد وكتب خطابا إلى طه حسين يقول له فيه : إن
هذا القول جاف وأرفضه وأحتج عليه وهمّ بارساله له فقال له سيد أبو النجا
لو كتبت ذلك لطه حسين سيكون له معك شأن ، والأفضل أن تكتب له :
إن هذا القول ماس ولا أستطيع قبوله . فسأله وما الفرق ؟ قال له : الفرق
كبير فكلمة جاف تنصرف إلى طه حسين وكلمة جارحة تنصرف إليك
والرفض فعل إيجابى أما عدم القبول فهو سلبى ! واستجاب الأستاذ

المساعد لرأى سيد أبو النجا وأعاد صياغة رسالته لطفه حسين فاستدعاه وطيب خاطره وطلب منه التقيد بلقبه العلمى !

أما الأمثلة على العبارات أو الكلمات القليلة الحروف التى قد تفرق بين حبيبين أو زوجين أو صديقين أو شقيقين أو زميلين فلا أول لها ولا آخر ! ذلك أنه من غرائب النفس البشرية أن استرضاءها واكتساب حبها وثقتها قد يستغرق شهورا وسنوات طويلة ، أما تنفيرها أو استشاره كراهيتها وعداوتها فقد لا يتطلب أحيانا أكثر من عبارة واحدة تكتبها أو تنطق بها فى لحظة فيكون لها اسوأ الأثر وإلا فتأمل حروف عبارات «أنت طالق» . . أو «لو كنت رجلا طلقنى ا» أو «لا أريد أن أراك أو أسمع صوتك بعد الآن» أو «من فضلك لا تتصل بى مرة أخرى» أو «اخرج بره يا كلب ا» أو «أنت لست رجلا» . . أو «وأنت لست امرأة ا» أو «أنت نذل» و«أنت جبان» . . الخ . . لتعرف ماذا يمكن أن تصنع الكلمة من خراب ودمار للنفس وللعلاقات احيانا ولتعدرنى بعد ذلك إذا كنت ما زلت أواصل «التشطير» وتقسيم الصفحات طوليا حتى لا أنسى «المبتدأ» وأنا أكتب «الخبر» بفضل الصيام ولتتجاوز أيضا عن أى شىء لم تفهمه فى هذا المقال وتعفينى من سؤالى عنه إذ لن أستطيع أن أفسره لك لسببين أولا : لأن فاقد الشىء لا يعطيه . . وثانيا : لأن رمضان كريم !

فعلتها !

في اللغة الإنجليزية تعبير شائع ترجمته الحرفية : لقد فعلتها !
وهو تعبير يستخدمه الإنسان حين يحقق هدفا صعبا أو يعمل عملا
كان يبدو له شبه مستحيل قبل الاقدام عليه ، لكنه بارادته وإصراره
استطاع أن ينجزه فانبهر هو نفسه بما حقق وقال طرويا فخورا : لقد
فعلتها !

ولو راجعت حياتك فقد تجد بين مواقفها ما يستحق أن تردد معه هذه
العبارة . . ، وسوف تجد بالتأكيد من الأهداف التي تستحق أن تسعى
وراءها بكل الاصرار لتتوقف بعدها راضيا عن نفسك وتردها الكثير . أما
أنا فلو راجعت حياتي لما وجدت اختبارا تذكرت فيه هذه العبارة أكثر من
تلك التجربة التي وضعت نفسي أمامها في سن الشباب . فلقد قررت أن
أشتري سيارة من ألمانيا وأصطحبها معي لمصر . وكانت الخطة التي
وضعتها لتحقيق الهدف « محكمة » للغاية . .

فلقد رتب أن أسافر مع صديق لي يعرف الألمانية إلى ميونيخ ثم أشتري
بمساعده سيارة مناسبة وأقودها على الطريق الدولي « الأتويان » من ألمانيا
إلى النمسا ثم إيطاليا وأتوجه بها إلى ميناء جنوا الإيطالي لأركب معها الباخرة

المصرية « سوريا » إلى الاسكندرية . واتخذت لتنفيذ خطتى كل الاستعدادات اللازمة ، فاستخرجت تأشيرات الدخول إلى الدول الثلاث وحجزت تذكرة السفر بالطائرة . . وتذكرة العودة بالباخرة وبوليصة شحن السيارة ، واستخرجت رخصة قيادة دولية من نادى السيارات بالقاهرة ودبرت ثمن السيارة وتكاليف الإقامة ، ثم سافرت مع صديقى وزوجته على الطائرة الألمانية ، وأمضيت معها عدة أيام فى فندق جميل صغير استبشرت باسم الشارع الذى يقع فيه وهو شارع جوته لأننى من عشاق هذا الشاعر والأديب الألمانى العبقري مؤلف آلام فيتر وفافست وغيرهما . وانتهت مهمة صديقى وزوجته فى ميونيخ واستعدا للسفر إلى سويسرا وتذكر المهمة التى رجوته فيها قبل السفر ولم أشر إليها أى اشارة بعد وصولنا فاصطحبني إلى محل لبيع السيارات المستعملة . . واشترى بلا أى تدخل من جانبى السيارة التى رآها مناسبة ودعانى لتوقيع عقد الشراء وسلمنى العقد ومفاتيح السيارة . . وتذكرت أنا فى هذه اللحظة فقط شيئا « ثانويا » فانتسى الاستعداد جيداً له . . فلقد أعددت كل الترتيبات لكن لم أسأل نفسى قط هل استطيع قيادة السيارة فى هذه الرحلة الطويلة التى تزيد عن ألفى كليو متر أم لا ؟ وهل سبقت لى قيادة أى سيارة فى أوروبا . . أو على الطرق الدولية السريعة وأنا الذى لم يكده يتعلم قيادة السيارات إلا قبل شهور أم لا ؟ وهل لى أى خبرة سابقة بهذا الطريق أم لا ؟ سألت نفسى هذه الأسئلة ووجدتني أجيب عليها بطريقة ابطال المسلسلات الدينية حين يقول أحدهم : لا . . ورب الكعبة ما علمت شيئا من ذلك ؟ ما علمت شيئا ؟ إذن فكيف سأقوم بهذه الرحلة الطويلة ؟ إن هناك

خيطة رفيعة بين الشجاعة . . والخوف إذا استجمعت ارادتك وعبرته دارت عجلتك على الطريق ولم تتوقف إلا عند هدفها . . ويبدو أنى قد فعلت شيئاً من ذلك واستجمعت ارادتي - وطلبت من صاحب محل السيارات خريطة للطريق ورجوته أن يحدد لي عليها أقصر طريق إلى جنوا فحدده لي بالقلم وشجعني بكلمات مشقة وهو يؤكد لي سهولة الطريق ما عدا مسافة قصيرة منه ستحتاج مني إلى بعض الحذر . . وفعلت كما يفعل المصارعون قبل النزول حين يلجأون إلى الشحن الانفعالي الذاتي لاستنفار القوة . . وركبت السيارة مع صديقي للفندق ووضعت حقيبتى بها واستدعى لي الصديق سيارة أجره لتسير أمامي وترشدني إلى «الأتوبان» الدولي ، وودعته وشكرته وقدت السيارة وراء التاكسي في حذر ، ومضت نصف ساعة قبل أن أصل للطريق الدولي السريع وأشار لي السائق فأنحرفت إليه ببطء فوجدت نفسى فجأة في أتون التجربة بلا أى استعداد ، ووجدت الطريق واسعاً يتسع لـ ٦ سيارات في الاتجاه الواحد ، والسيارات ترق من يميني ومن يساري ويلفحنى أزيز هوائها وهى تعبرنى . . فأحسست بيدي ترتجف على عجلة قيادة السيارة وبقدمى تنتفض فوق بدال البنزين وخيل لي أنى أسمع دقات قلبي في أذنى كقرع الطبول . وبدأت فرقة كاملة من فرق الإنشاد الدينى تردد فى داخلى أدعيتها وترايلها . . ، وأصبح هدف حياتى فى هذه اللحظة هو كيف اتفادى السيارات المارقة وأنحرف ببطء وحذر إلى جهة اليمين لأستقر فى خانة النقل البطيء وبجهد جهيد استطعت الوصول لليمين .

وهذأت السرعة واستقرت على سرعة ٥٠ كيلو متراً فى الساعة

وواصلت السير نصف ساعة . . فبدأت أنفاسى تهدأ وارتيحافى يتوقف . .
ثم لاحظت بدهشة أنى بدأت اكتسب الثقة فى نفسى وأزيد من سرعتى
تدريجيا . . فقدت السيارة - يا للجسارة - على سرعة ٦٠ كيلو مترا وقدرت
أنى بهذا المعدل لن يمضى سوى ثلاثة أيام وأصل إلى جنوا ! ثم استكثرت
فيها يبدو أن امضى ٣ أيام فوق الطريق فزدت السرعة باللجنون - إلى ٧٠
كيلو مترا وبعد أقل من ساعة أخرى كنت قد فقدت إترانى . . واخترت
«حاجز الصوت» بسرعة ٨٠ كيلو مترا ! وبدأت إتجه للسيار وسط
السيارات المسرعة . . وأزيد السرعة حتى وجدتنى بعد ساعتين أسير
بمعدل ١٢٠ كيلو مترا واتساءل مبهورا حين تمرق بجوارى السيارات بأى
معدل يسير هؤلاء المغاوير !؟

واسترخت اعصابى تماما وبدأت أرقب الخريطة واتبع علامات الطريق
إلى المدن المحددة لى على خط السير لأتأكد من أنى فى الاتجاه الصحيح ،
واكتشفت أن الأمر أيسر كثيرا مما توقعت ومما خشيت . ووجدت الوقت
طويلا فشغلت نفسى بالمشاهدة واجترار الذكريات وتذكر أجبائى
وأصدقائى . . وفاجأتنى خلال نوبة التذكر ذكرى عجيبة ضحكت لها من
جديد . . وتوجست منها ! فلقد تذكرت صديقى تعيس الحظ دائما الذى
علمنى قيادة السيارات ، وكان من هواة السيارات المتهالكة القديمة التى
لا يستطيع أحد قيادتها غيره . وفى بعض الفترات كان يملك سيارة كل ما
فيها تالف وغير صالح للاستخدام حتى الفرامل وكان من غرائبها أن
بها خللا فى عجلة القيادة يمنعها من الاتجاه للسيار فإذا أراد الاتجاه يسارا
دار بها دوره كاملة من اليمين ، ثم شاء له سوء حظه فى الستينيات أن يسير

بسيارته وهى بلا فرامل تقريباً فى شارع رمسيس فقادها ببطء شديد خوفاً من الاصطدام بالسيارات، فإذا بضابط مرور يركب الموتوسيكل يجرى صائحا فى قادة السيارات : اجروا بسرعة . . اجروا موكب الرئيس عبد الناصر فى الطريق ! ولم يسمعه صديقى لانشغاله التام بترويض سيارته وضاق به ضابط المرور واقترب منه وصاح فيه بعنف ! اجر . . إجر . . موكب الرئيس خلفك ، وذعر صديقى وارتج عليه الأمر ونسى تماما حكاية الفرامل وداس على بدال البنزين بكل قوته ! وانتهى الأمر طبعاً بحادث تصادم فظيع عند إشارة المرور بميدان رمسيس واصطدم بصف السيارات الذى ينتظر الإشارة وكاد يفقد حياته .

ضحكت للذكرى وخفت منها وافقت من ذكرياتى فوجدتني أمام بوابة الحدود النمساوية وواصلت الرحلة مستعينا بالخريطة إلى أن وجدت الطريق يضيق ويرتفع تدريجياً فقللت من سرعتى وأن كانت السيارات الأخرى لم تفعل مثلى . . وواصلت السير فإذا بالطريق يزداد ضيقاً وارتفاعاً . . وسرعتى تواصل الانخفاض إلى أن اكتشفت فجأة أنى قد أصبحت دون أن أدري فوق قمة جبل شاهق الارتفاع ويناطح السحاب . . وعلى طريق ضيق لا يتسع إلا لسيارتين من الاتجاهين ووجدت الطريق يتلوى فوق الجبل كالثعبان فلا ترى السيارات القادمة من الاتجاه الآخر إلا وهى فى مواجهتك مباشرة وزاغت منى نظره عفواً إلى الهوة السحيقة إلى يمينى فتجمد الدم فى عروقى وتشنجت يداى على عجلة القيادة وأدركت أن هذه هى المسافة « القصيرة » التى نبهنى لها صاحب محل السيارات وطالت هذه المسافة القصيرة إلى ساعتين طويلتين قليل

المعذنين ثم أخيرا بدأ الطريق يهبط تدريجيا . . ويتسع شيئا فشيئا إلى أن انتهى الجبل عدت للطريق العادى فكان أول ما فعلته هو أن توقفت على يمينه وغادرت السيارة لألتقط أنفاسى قليلا ثم نظرت خلفى لأرقب الجبل الذى عبرته فتذكرت ما رواه الأديب العظيم توفيق الحكيم فى كتابه الرائع «يوميات نائب فى الأرياف» حين انتقل إلى إحدى القرى للتحقيق فى جريمة قتل وهو وكيل للنيابة خلال الليل . فعجزت السيارة عن مواصلة السير فى الدروب الضيقة ونزل الجميع وركبوا الحمير إلى القرية المقصودة ، وأمضى الليل كله فى التحقيق ثم انصرف عائدا فى الصباح فركب الجمع الحمير إلى موقع السيارة . . وفى إحدى مراحل الطريق فوجئ توفيق الحكيم بالخفير يسحب الحمار الذى يركبه وكيل النائب العام ليعبر به وهو يمتطيه التربة فوق جذع نخلة يمتد فوقها ويستخدم ككوبرى . . وبهت الحكيم للمحاولة ونهره صائحا : أنت مجنون يا خفير هل تريدنى أن أعبر فوق الحمار هذه النخلة واسقط فى التربة ! وذهل حين أجابه الخفير ببساطة : سبق لجناحك أن عبرت بالحمار فوق هذه النخلة نفسها أثناء الليل!

وأظن أن هذا كان أيضا نفس احساسى بعد أن عبرت هذا الطريق الجبلى المخيف فى إحدى سلاسل جبال الألب ولا تتسع المساحة لأروى لك باقى تفاصيل هذه الرحلة المثيرة وكيف انتهت بوصولى إلى جنوا بعد يوم وليلة على الطريق ، ثم اقامتى ٤ أيام فى هذه المدينة الإيطالية الجميلة وعودتى « المظفرة » إلى الاسكندرية مصطحبا السيارة التى لا أعرف حتى الآن كيف استطعت قيادتها واحضارها .

لكننى أقول لك فقط أنك لو أعطيتنى الآن وبعد أكثر من عشرين سنة
أموال قارون ونوط الشجاعة من الدرجة الأولى وطلبت منى أن أكرر نفس
التجربة وأعبر نفس الطريق الجبلى لما أجبتك إلا بما أجاب به توفيق الحكيم
الحفير فى روايته !

ولا عجب فى ذلك حتى ولو كان فارق الخبرة بأوروبا وطرقها بل
وبقيادة السيارات أيضا قد أصبح الآن لصالحى وذلكا الآن فارق القدرة
والأقدام . . وربما الاصرار أيضا وهو الأهم لم يعد الآن فى صالحى . .
وهذه هى سنة الحياة وأذكر بهذه المناسبة أن صديقا لى أصبح الآن من
أصحاب الملايين فى أوروبا قد روى لى كيف هاجر من مصر وليس معه
سوى ١٠ دولارات وحقيبة أقراص بالعجوه وقاسى الأهوال سنوات طويلة
إلى أن وضع أقدامه على أول الطريق ، فسألته لو كنت الآن فى نفس
الظروف التى دفعتك للسفر فى سن الشباب هل كنت تستطيع أن تبدأ
نفس الرحلة وتكرر نفس القصة فأجابنى بلا تردد : لا ولو كانت أموال
الدنيا تنتظرنى فلست الآن نفس الشاب الذى كان وما عدت أستطيع
تحمل ما كان يتحمله !

ولا عجب مرة أخرى فى ذلك فالشباب « يقدر » لكنه تنقصه المعرفة أو
الخبرة التى تستثمر قدرته والكهول « يعرفون » لكنهم لا يقدرون وفى هذا
قال الشاعر :

أواه لو « عرف » الشباب

وأه لو « قدر » المشيب !

ومع كل ذلك فما زلت أوّمن بأن التحدى يستنفر دائما الارادة وأن

بداخل كل إنسان قدرات على الاحتمال لا يعرف هو نفسه كنهها . . ولا يقدرها حق قدرها . . ولن يتعرف عليها وعلى حقيقتها إلا بالتجربة وعند التحدى . كما أنى ممن يؤمنون بما يقوله عالم النفس الأمريكى وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) من أن مجرد احتمال النجاح يسبغ على الكفاح نبلا خاصا ويجعله جديرا بأن نبذل كل ما نملك من جهد وطاقة فيه . فقط أضيف إلى ذلك أن الوسائل قد تختلف من مرحلة إلى مرحلة من مراحل العمر . . والأهداف أيضا قد تختلف لكن المؤكد هو أنك أنت وأنا وغيرنا بداخلنا قدرات يستنفرها التحدى . . ويشحذ فينا الإرادة الكامنة في الأعماق ويخرجها من مخابئها .

«فافعلها» أنت أيضا يا صديقى وأقدم على ما قد تستهوله وتتصور نفسك أعجز من أن تحققه . . واستعن بارادتك وكفاحك النبيل على نيل ما تستحقه من الحياة . فقط لا تنس شيئا هاما هو ألا تجرب بلا فرامل كما فعل صديقى إياه . . واستكمل دائما أدواتك بالمعرفة الجيدة والاستعداد الصحيح والخريطة الدقيقة ثم ابدأ رحلتك على بركة الله إلى أهدافك في الحياة !

أنت « حكاية كبيرة » !

كنت مسافرا إلى الخرطوم على الطائرة السودانية منذ حوالي عشر سنوات ، فأضئ الضوء الأحمر ، وربطنا الأحزمة وتحركت الطائرة ببطء إلى عمر الاقلاع ثم توقفت وارتفع أزيز محركاتها تمهيدا لاندفاعها السريع الذى يحقق لها عملية الارتفاع والطيران . . . وحبست أنفاسى «كالعادة» إنتظارا لهذه اللحظة الحاسمة التى يتخلع فيها قلبى مع اللحظة التى تفارق فيها عجالات الطائرة الأرض . . . والتى لم استطع رغم اعتيادى السفر أن اتخلص من رهبتها أبدا واستعين عليها دائما بالتمتمة ببعض آيات القرآن الكريم وأحبها إلى فى هذه اللحظة الآية الكريمة التى تقول « فאלله خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين » من سورة يوسف ، وآية الكرسي التى أعيد ترديد آخرها « ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » عدة مرات وغيرهما ، وكنت فى تلك اللحظة أتمتم بما أقرأ حين فوجئت بصوت الطيار يتحدث إلى الركاب على غير العادة ويبدأ حديثه بالآية الكريمة : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » من سورة الزخرف ، فتوقفت عن تمتمتى مذهولا وتعجبت من نفسى كيف لم تخطر بذهنى هذه الآية الكريمة من قبل فى مثل هذه المناسبة على كثرة ما سافرت ١٩ . . . بل وكيف لم أتوقف خلال سفرى مرة

لأ تأمل هذه الحقيقة وهى : أن الله - جل شأنه - قد سخر لنا « هذا » . .
وما كنا له « مقرنين » أى مطيقين وقادرين على ضبطه والتحكم فيه
واستغرقت فى تأملاتى . . وهدأت نفسى وأصبحت هذه الآية الكريمة
منذ ذلك اليوم من « مختاراتى » المفضلة عند اقلاع الطائرة أو ركوب السيارة
أو الابحار فى سفينة ، وستكون كذلك بكل تأكيد إذا أتيح لى ذات يوم أن
أركب صاروخا أو محطة فضاء إلى القمر . .

وتفكرت طوال الرحلة فى معناها . . وتساءلت . . وبأى شىء سخر
لنا الله « هذا » وماذا كانت الوسيلة ؟ واجبت نفسى بأنها عقل الإنسان
الذى وهبه الله له . . وإرادته التى أشعل جذوتها فى روحه . وإزداد اقتناعى
بها أوّمن به دائما . من أن الإنسان هو أرقى الكائنات الحية وأكرمها على
ربه ، وخليفته فى أرضه الذى سخر له كل ما فيها وما فى السماوات أيضا .
وينبغى أن يكون دائما كريما عند نفسه وعند الآخرين . فأنت مهما كان
شأنك تستحق كل الاحترام . لمجرد أنك إنسان ولأنك إنسان بنفخة من
روح الله فىك . ألم يقل الله لملائكته حين أراد خلق آدم عليه السلام « فإذا
سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ؟ إنك من سلالة هذا
الجد العظيم الذى سجدت له الملائكة . . واستخلفه ربه ونفخ فيه من
روحه جذوة مقدسة لا تنطفئ إلا عند الرحيل ، بل ووهبه أيضا مواهب
وقدرات وطاقات عقلية ونفسية مالمو عرف كيف يستخدمها أفضل
استخدام لحقق لنفسه ما أراد . . ولأضاف إلى الحياة كل يوم جديدا . .
ولجعل من كوكب الأرض . . « فتنة للأنظار » على حد تعبير الكاتب
الروسى انطون تشيكوف ، فالإنسان يستطيع - حقا - أن يفعل الكثير إذا لم

يستسلم للاحساس بالعجز وتفاهة الشأن . وبسط ما يستطيعه إذا خلت يده من أية موهبة أو امكانيات ، هو أن يكون « إنساناً » كما أراد الله له أن يكون فيتعامل مع الحياة والآخرين بشرف ، ويؤدى عمله بأمانة ، ويلتزم بالفضائل وينثر الخير حوله ولو بالكلمة الطيبة . ويعادى الشر . . والقبح وينشر الحق والجمال . . وأى انجاز أعظم من « تجميل » الحياة بوجود الخيرين فيها . . ؟ ومن تذكير الآخرين بتصرفاتك الآمنة إن الإنسان الشريف لا يكون تافها أبدا مهما كانت ضآلة شأنه ! لقد كان أحد الفلاسفة يقول كمن « كاملا » في عالم فاسد . . تكتمل الحياة من حولنا بالتدريج وتتجه ببطء نحو مثلها الأعلى ، وأنت تستطيع بلا شك أن تدفعها في هذا الاتجاه بمجرد أن تكون « إنسان » لا يسلم قياده لغرائزه وشهواته وأنانيته ونوازع الشر واغراءاته .

أما إذا أردت أن تضيف المزيد إلى الحياة . . فلا حد ولا نهاية لما يستطيع عقل الإنسان وإرادته أن يفعل !

لقد قال الكاتب الأمريكى اميرسون : إنه ليس هناك عظماء وأشخاص عاديون . . وإنما هناك أشخاص يلهبون الجذوة المقدسة التى نفخها الله فى أرواحهم . . فترتفع بهم إلى ما يريدون وآخرون يتركونها تذوى وتذبل ويستسلمون لفشل الروح . . والعجز . . والكسل ويقولون دائما : وماذا نستطيع أن نفعل وحدنا ولسنا سوى أفراد عاديين !؟ .

والعقلاء لا يطالبوننا بالمستحيل الذى لا تسمح به قدراتنا ، وإنما يطالبوننا فقط بالألأ نبادر بالاقرار بعجزنا عما نريد قبل أن نحاول بكل جدية

واخلاص وصلابة أن نحققه ، فإذا عجزنا عنه بعد ذلك فقد نلنا شرف المحاولة . . ورضينا عن أننا لم نقصر في حق أنفسنا ولا في حق الحياة ، وكسبنا خلال محاولتنا المضنية دروساً أضافت لخبرتنا الجديد والشمين . فأخطر ما يشل روح الإنسان وإرادته . . هو الاقرار بالعجز قبل بدء المسيرة . . ولو أقرَّ به كثيرون قبل البداية لما أصبحوا عظماء ، ولما حفروا أسماءهم في سجل التاريخ ولما أضافوا ما أضافوه إلى الحياة .

لقد عاد طفل صغير في السادسة من عمره إلى أمه ذات يوم يحمل خطاباً من المدرسة تنصح فيه الأم بإبقائه في البيت بلا تعليم لغبائه ! وقرأت الأم المثقلة بالأبناء وأعباء الأسرة الرسالة فلم تبك ولم تنتحب . . وإنما هزت رأسها وقالت باصرار : إبنى ليس غيباً . . بل هم الأغبياء . . وسوف أعلمه بنفسى في البيت . . وعلمته بالفعل وبصبر واصرار . فأهدت للبشرية «توماس ادیسون» بكل ما أضافه للحياة من مخترعات سهلتها على البشر وزادت من استمتاعهم بها . ترى إذن ماذا كان يمكن أن تكون عليه الحياة الآن لو استسلمت هذه الأم البسيطة أمام مشكلة ابنها وأقرت بعجزها عن مساعدته ؟!

بل ماذا كان يمكن أن تكون عليه الحياة الآن . . لو استسلمت مدام كورى لعجزها وقلة حيلتها بعد وفاة زوجها وقالت لنفسها ما أنا إلا أرملة كسيرة الجناح . سأعجز عن أن أتم ما بدأه زوجى . . ولم تواصل عملها ولم نعرف الراديو وما ترتب عليه فيما بعد من انجازات علمية وطبية عديدة؟ لقد كان نابليون بوناپرت يقول ساخراً من حمج المتقاعسين : ما هى «الظروف» هذه التى يمكن أن تعترض طريق إنسان له إرادة ؟ . . اننى أنا

الذى أصنع « الظروف » التى تمهد لما أريد . . وليست الظروف هى التى تصنعنى . .

وهذه الارادة الحديدية أصبح سيد أوروبا كلها فى بعض الأوقات .
وليس كل إنسان مطالباً بأن يصبح سيد قارته . . لكنه مطالب - فقط -
بأن يكون كالشاعر الألمانى « جوتة » حين وصف نفسه قائلاً : أنا كنجوم
السماء لا تمضى فى عجلة لكنها تسير سيردا دءوباً لا يعرف السكون ! . .
وهذا فعلاً ما ينبغى لكل إنسان يرفض أن يكون عبثاً على الحياة حتى
اللحظة الأخيرة . فالسكون هو الموت والعجز والفشل . . والحركة ولو
كانت بطيئة هى الحياة والسعى الدءوب الدائم إلى سعادة الإنسان وخير
البشر.

لقد ظل الرسام الفرنسى العظيم « رينوار » يرسم حتى عجز فى
شيخوخته عن الإمساك بالفرشاة فكان يثبتها فى معصم يده بشريط لاصق
ويواصل الرسم بلا هوادة ، وهو يشكر ربه لأنه لم يفقد بصره كما حدث
لصديقه الرسام المبدع أيضاً « ديغا »

وأصيب الفنان الأسبانى العظيم « جويا » بمرض خطير أفقده السمع
والبصر والقدرة على الحركة لعدة شهور متواصلة ثم برأ من المرض ولازمة
الصنم بعد ذلك للنهابة . . فانطلق يرسم ويبعد حتى آخر يوم فى حياته
وهو يشكر ربه لأن آفته لا تعوقه عن أداء عمله .

والفنان المصرى العظيم أحمد صبرى صديق العقاد وطه حسين والحكيم
وأول أستاذ مصرى بكلية الفنون الجميلة ظل يرسم والظلام يزحف على
بصره تدريجياً حتى عجز عن رؤية موقع ريشته على اللوحة فوضع ريشته

ومات بعد أيام شاعرا بأن مهمته فى الحياة قد انتهت بعجزه عن مواصلة العمل والإبداع . . ويتهوفن أصيب بالصمم فلم يمنعه صممه من مواصلة الإبداع وتأليف الموسيقى التى لا يسمعها وعزف النغمات التى لا يعرف صداها .

والإنسان الحق الذى يستحق اسم الإنسان وصفته لا يمكن تخطيطه لأن قدراته لا حد لها . . ولأنه كائن فريد لا مثيل له بين بلايين الكائنات التى عرفتها الأرض . . وقد خلقه ربه كما قال أحد العلماء «بدقة تثير الرهبة فى النفوس» لو اطلع البشر على بعض أسرارها .

فصدقنى حين أقول لك : أنت « حكاية كبيرة » جدا . . لكنك لا تعرف أحيانا قدر نفسك . . ولا تجيد فى أحيان أخرى استخدام قدراتك ومواهبك . . وخسارة ألف مليون خسارة . . أن تتنازل عن عرشك الذى أجلسك عليه ربك بالاستسلام لخوز الإرادة . . أو العجز والكسل . . أو الفشل أو اليأس . . أو نوازع الشر التى لا تليق بمن سجدت لجده الملائكة مثلك ، وبمن ينبغى أن يكون دائما موضع التكريم والاحترام . . لأنه إنسان !

إلهام زعلانه !

لا تصدقني إذا قلت لك مرة أنني جلست لأكتب مقالاً فأخذتني
«نشوة الكتابة» ولم أشعر بالوقت وهو يسرقني . . فالحق أنني لا أكره شيئاً
في الحياة مثلما أكره الكتابة ولو تركت لنفسى ما جلست إلى مكتبي إلا لأقرأ
واستمع بما عانى غيري لكي يسطره على الورق . . وليس هناك بالنسبة لي
شيء اسمه نشوة الكتابة وإنما هناك شيء اسمه غناء التفكير «وغلب»
التدقيق في كل كلمة وشقاء الرجوع للمراجع لتوثيق أى معلومة تأتي عرضاً
في مقال . . ثم هناك بعد كل ذلك عذاب الشك في قيمة ما كتبت وقلق
الخوف من ألا يستحق غناء القراءة أو قبول القارئ له أو استحسانه !
ورغم أن كتابي الحادى عشر قد صدر لى منذ أيام . . فاني لم أخلص بعد
من وساوسى تجاه ما أكتب ولم أجلس مرة لأكتب دون أن يراودنى خاطر
جميل أشبه بالحلم استسلم له كثيراً . . هو أنني قد وجدت لنفسى «عملاً»
آخر بعيداً عن هذا العناء مع أنني لم أتحيل لنفسى منذ كنت في الرابعة عشرة
من عمري حياة أخرى بعيدة عن دنيا القراءة والكتابة ولا أصالح لممارسة أى
شيء آخر في الحياة سوى هذا الشقاء الأبدي . .

ومن طول معاناتي معه دخلت حياة أسرتي الصغيرة مفردات جديدة لو

سمعتها غريب عنها لظن بعقول أفرادها الظنون . . فنحن في أسرتي
نتحدث كثيرا عن امرأة مدللة متقلبة اسمها «الهام» تزورني أحيانا
فتستريح أعصابي وتسعد الأسرة كلها . . وتهجرني في أحيان أخرى فتتوتر
أعصابي وتضطرب أحوال الأسرة ويخيم شبح الشقاق عليها . .
وقد بدأت علاقتها بأسرتي من أننى أكتب في الصباح في مكتبتي
بالبيت . . فأعد الأوراق والأقلام . . وارتب مكتبتي ليكون في أجمل شكل
ممكناً وأدير الموسيقى الناعمة وانزل الكتب التى سأستعين بها من رفوف
المكتبة وأعدل وضع الصور المعلقة حولي من كل جانب خوفاً من أن
«تأتى» فتجد احداها ماثلة فتستاء وتعود من حيث أتت ولا تفلح معها
محاولاتي لاسترضائها . . ثم ارتب هيشتي وأمسك قلمي وأضعه على أول
السطر . . وانتظر فيمضى الوقت بطيئا أو سريعا . . ومن حين لآخر
تدخل على زوجتي أو ابنتي أو ابني فيسألننى : هل جاءت «الهام» ؟
فأجيب باقتضاب ورجاء : ليس بعد ، وهكذا حتى يمضى اليوم أحيانا
وأدعى للغداء والخروج فانهض متوترا وأنا أعلن لأسرتي أن «الهام»
غاضبة . . ولابد من وسيلة لاسترضائها . .
ومن تجاربي السابقة عرفت أسرتي أن هذه اللحظات هى أسوأ لحظاتي
وأكثرها استجابة للتوتر والشقاق . . وأن الأفضل للسلام العام في أسرتي
ألا يجادلنى أحد في شيء وقتها . . وأن يدخر الآخرون رغباتهم ومناقشاتهم
لوقتي السعيد الآخر الذى تزورني فيه تلك الفاتنة فتمضى معى ساعات
الصباح كلها في مكتبتي ثم تغادرني في الثالثة أوالرابعة بعد الظهر مودعة
منى بكل آيات الاحترام والاجلال . . إذ ما أن أغلق باب الشقة وراءها

حتى أعود إلى أسرتي مبتهجا وأنا أسير فوق السحاب . . ووافق على أى شىء دون مناقشة . .

أما كيف دخلت ألهام حياة أسرتي وارتبطت بأوقات سعادتها وتوتراتها فقد كان ذلك منذ عدة سنوات وابنتى فى سن البراءة والسذاجة . . فقد أمضيت ذات يوم ساعات الصباح أحاول الكتابة بلا جدوى ثم نهضت مكتئبا فسألتنى ابنتى عن سبب ضيقى ففسرته لها . . فسألتنى ولماذا لم تكتب ؟ فأجبته وأنا غائب الذهن : مفيش ألهام ! وبإشفاق من يتعجب لعجزى عن حل مشكلة صغيرة هذه مع أنها ميسورة الحل سألتنى براءة : ولماذا لا تتصل « بها » بالتليفون وتأخذ منها ما تريد لتكتب !

وتنبهت إلى أنها تتصور أن ألهام فتاة تحمل هذا الاسم ويتوقف على حضورها أو اتصالى بها أن يجرى القلم فى يدي . . أو يتعثر . وتأملت الفكرة طويلا وضحكت لها وتمنيت لو كان الأمر بهذه البساطة اذن لتعاقدت مع « ألهام » مثلاً واتفقت معها على أن تزورنى كلما أردت أن أحول افكارى إلى كلمات مسطورة . .

وأصبحت حكاية ألهام نكتة عائلية نتندر بها . . ثم تحولت إلى إحدى مفردات قاموس حياتنا الجادة كميزانية البيت وحساب البقال وإيصال الكهرباء فأسرتنى تسألنى حين أجلس للكتابة عن اخبارها وأنا انهى إليها اخبارها يوما بعد يوم حسب الأحوال . . فأنا ضيق الصدر اليوم لأنها زعلانة . . وأنا سعيد اليوم لأنها كانت رائعة معى هذا الصباح الخ . . كما أننى لا اتسامح أبدا مع من يسىء إليها بأى كلمة أو « يدعو » عليها أمامى لأنها « تنكد » أحيانا على الأسرة بدلاها وتقلباتها العاطفية ، وكلما تمادت

هى فى تمردھا ودلالھا انحنيت إكبار لمن لم يأبهوا لها ولم يتعاملوا معها إلا «بالبرطوشة» القديمة من العباقرة والموهوبين موهبة طاغية تتفجر داخلهم وتحرك أقدامهم بغير عناء وفى أى وقت يريدون . . وأحسست بالشهامة فيها «لختوعها» هم واستجابتها لأوامرهم ودعواتهم لها فى أى وقت من الليل أو النهار بل وفى أى مكان مهما كان جميلاً أو بشعاً . . وإن كنت لا أعجب لذلك كثيراً لأنها من «النساء» اللاتى يتلذذن بالخضوع لمن هم أقوى منهن ويحبدن فى ذلك سعادة ومتعة . . ويتلذذن باذلال من هم أضعف منهن ويحبدن فى ذلك أيضاً سعادة ومتعة . .

وإلا فانظر مثلاً «أين» كان الأديب الروسى العظيم دوستويفسكى يستدعى تلك الغادرة . . فتواتيه صاغرة على الفور ! لقد كان يستدعيها فى بعض الأحيان فى بهو قذر ملطخ بالخبز الأسود فيكتب وهو واقف على رخامة المطبعة فصولاً كاملة من روايته ويتسلمها منه صغاف الحروف مباشرة . . ومع ذلك لم تكن تنفر ولم تتأب عليه . .

وأكثر من ذلك فقد استدعاها عدة ليال متوالية إلى مائدة صغيرة إلى جوار فراش زوجته وهى تحتضر فلم تتشاءم من المكان وإنما أملت عليه فصولاً رائعة من إحدى رواياته . . وأكثر من ذلك باركت بداية العلاقة بينه وبين سكرتيرته الجديدة التى استعان بها لمساعدته فى تلك الظروف فكانت بداية التفاهم تحت إشرافها إلى جوار سرير الزوجة المحتضرة . . وشهدت زواجه منها بعد رحيل زوجته ببضعة أسابيع لا تزيد . . ناهيك عن الغرف القذرة التى كان يستدعيها إليها فى معظم سنوات شبابه ورجولته وهو يكتب «الجريمة والعقاب» . . و «المساكين» و «المقامر» أو

ثلوج سيبريا الموحشة التى صاحبتة فيها ٤ سنوات طوال كتب بعدها روايته «ذكريات من منزل الأموات» التى صورت عذاب المنفيين فى سيبريا والعقاب الجسدى الذى يتعرضون له وأثرت فى القراء تأثيرا عظيما حتى أن قيصر روسيا الاسكندر الأكبر كانت دموعه تسقط على صفحات الرواية وهو يقرأها . . وأمر بتشكيل لجنة لبحث الغاء العقاب الجسدى الذى صوره دوستوفسكى وانتهى البحث بالغائه سنة ١٨٦٣ . . بفضل هذه الرواية قبل كل شىء . .

فانظر كيف كان يتعامل «معها» دوستوفسكى بمنتهى الحزم والشدة ودون أى اعتبار لمشاعرها ؟ لقد كان يكتب فى كثير من الأحيان لأنه فى حاجة ملحة للنقود لسداد ديون القمار ، أو ليراهن من جديد على خاتنى الأحمر والأسود فى الروليت ويخسر المزيد أو ليجد قوت أسرته . . ولم يكن يخفى ذلك عليها ولا يجمله وإنما يأمر فيطاع . . إنه عبقرى وموهوب ولا تجرؤ «بنت» من بنات الأفكار على مخالفة أمره . . وهكذا ينبغى أن يكون العباقرة ، بل انظر أيضا كيف كان يعاملها أونوريه دى بلزاك الروائى الفرنسى العبقرى (١٧٩٩ - ١٨٥٠) الذى ظل يكتب فى غرفة تسبح فى القذارة وتقرح فيها الحشرات ٦٠ صفحة كل يوم لمدة ٣ سنوات متواصلة أتم خلالها ٣١ كتابا من كتب المغامرات نشرها كلها باسماء مستعارة ليكسب قوت يومه . . ثم كيف ظل بعد أن حقق مجده الأدبى يستنزفها بلا توقف ولا إجازة ليوم واحد . . ولا يحلو له استدعاؤها إلا فى الثانية من صباح كل يوم فينهض من فراشة إلى المكتب مباشرة . . وهو يرتدى زى الرهبان ويجلس للكتابة وبجواره ابريق للقهوة يتأجج باستمرار فوق الموقد

ويظل يكتب حتى السادسة . . ويراجع تجارب الطبع لروايته الجديدة حتى التاسعة ثم يعود للكتابة طوال النهار إلى أن يسقط اعياء وينام بضع ساعات وينهض للكتابة من جديد وتناول القهوة بغير توقف . . صحيح أنها استنزفته كما استنزفها فمات في سن الواحدة والخمسين قبل أن يستمتع كثيرا بالثراء الذى ظل يعمل له طوال حياته . . وبعد أن تزوج الارملة التى ظل ١٢ عاما يحبها وهى زوجة رجل آخر وراوغته ٥ سنوات بعد ترملها قبل أن تقبل زواجه . . لكن هل شكت «الهام» مرة من ارهاقها معه ؟ أبدا . . بل كان يأمر فتطيع . . وينهر فتتأدب فى حضرته . . كما ينبغي دائما لمن يتعامل مع العباقرة والموهوبين . .

نعم لقد كان الأديب العظيم فيكتور هوجو أكثر رقة « معها » لكنها أيضا لم تكن تجرؤ على مخالفته . . وكانت تزوره فى بيته حين يقيم مع زوجته فاترة المشاعر « أديل » وتملى عليه ما يريد ، وتزوره فى الشقة الصغيرة التى اتخذها لعشيقته ممثلة المسرح غير الموهوبة جوليت التى تفانت فى حبه وتستجيب لآثارته . .

ولاحظ هوجو أن زياراتها له فى مسكن جوليت أعظم أثراً وفائدة للأدب . . فأكثر من زيارته لجوليت التى لم تقصر هى الأخرى فى توفير الجو الملائم له ليستقر على الورق أعذب الأشعار واجمل الروايات . . فقد ملأت شقتها بصور العبرى المحبوب وأعدت له فى غرفة نومها ركناً به مائدة للكتابة ومصباح قوى ومدفأة وأوراق لا حصر لها وكانت تمضى الليل بطوله راقدة فى فراشها ترقب شاعرها العظيم وهو يكتب ولا ترفع عينها عن رأسه . . واستمر ذات ليلة يكتب حتى أشرق الصباح وانتهى

احدى رواياته فرفع رأسه إليها معتذراً وهو يقول برقة :

هل جعلتك تنتظرين طويلاً؟

فبادرته بحرارة : لم أكن انتظر . . وإنما كنت انظر إلى رأسك النبيل

الملهم . . فيتضاعف حبي لك وأعجابي بك . . وازداد سعادة !

وهكذا ليلة بعد ليلة . . ويوماً بعد يوم . .

ومثل «هوجو» كثيرون من العباقرة والموهوبين في الماضي البعيد

والقريب والحاضر . . وكلهم لا يستعصى عليهم الهام ولا خيال . . ولا

يراعون مزاج عرائسه ولا أوقات راحتها . . فالأستاذ أنيس منصور مثلاً لا

يحلوله في هذا الشتاء القارس ان يستدعى عروس الهامه إلا في الرابعة من

صباح كل يوم ولا يفرج عنها إلا في العاشرة صباحاً والأستاذ أحمد بهجت لا

يستقبلها الا من منتصف الليل وحتى السادسة صباحاً . . والأستاذ الكبير

نجيب محفوظ يرغمها على تقبل نظامه الحديدي فيأمرها بالحضور في أيام

محددة من الأسبوع من السادسة مساءً حتى الثامنة فإذا دقت الساعة

الثامنة أمرها بالانصراف فوراً ولو كانت الجملة في منتصفها . . ولا يقبل

رجاءها أن ينتظر لحظة حتى تستكمل الجملة الناقصة . . وإنما يشير لها

إلى الباب بحزم فتخرج ذليلاً وتعود إليه في الموعد المحدد بالدقيقة

والثانية . .

هؤلاء هم «الرجال» حقاً . . أما امثالي من عديمي الموهبة فهؤلاء هم

من تشعر «هى» معهم بسيادتها وجبروتها . . وسطوتها ودلالها . . وعزة

جهاها . . ولا حيلة لهم في ذلك . . ولا حيلة لها أيضاً فيه لأنه من أحوال

الحب وعلاقات القوة فيه ولأن من يجب أقل يتحكم أكثر ومن يجب أكثر

يخضع أكثر . . وهى بخيلة بمشاعرها على المتلهين . . والراكعين . .
سخية بها على الأقوياء والموهوبين . .

ويبدو أننى كنت غارقا فى التفكير فى كل ذلك إلى حد الدهول وأنا
جالس إلى مكتبى أحاول أن أكتب مقالى لمجلة زهرة الخليج حين رن جرس
التليفون بجوارى فإذا بصوت السيدة عبلة النويس رئيسة التحرير يسألنى
لماذا لم أكتب للزهرة منذ أسبوعين . . فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أجيبها
ذاهلا :

إلهام زعلانة !

وتعجبت من نفسى كيف افلتت هذه العبارة منى ولم يسبق لى الحديث
معها بهذا الشأن وسكتت هى لحظات لعلها تخرجت خلالها من اقحامى
لها فى «شئونى العائلية» ! ثم أدركت الموقف سريعا . . ونصحتنى ببذل
الجهد فى «استرضائها» ووعدت . . وحاولت . . وما زلت أحاول . . !

الجدران العالية !

وجدت نفسي في ميدان بيكاديللي بلندن عند الأصيل . . الشباب من حولي يجلسون حول النافورة . . ويتسكعون في كل مكان . . يضحكون ويغنون ويجلسون باسترخاء يعطيك الإحساس بأنهم يستمتعون حتى بالفراغ والصمت وأنا وحدي الذي لا أبتهج لشيء . . ولا أستمتع بشيء ، لماذا؟ لا أعرف . هل كنت غاضبا لشيء؟ أو حزينا على شيء؟ أبدا . . هل فشلت في تحقيق هدف فضائقي ذلك؟ .

إنني في إجازة ولا هدف لي إلا إراحة جسمي وعقلي من ضغوط العمل والحياة لأجدد نشاطي وأعود لمواصلة عملي وقبل السفر يصل أكتتابي إلى قمتي ويتركز هدف حياتي في أن أنجح في الحصول على الإجازة وترتيب إجراءات السفر وكتابة الأعمال الصحفية التي ستشر خلال غيابي ثم انهمض صباح يوم السفر سعيدا إذا كنت قد نجحت في اقتناص ساعتين أو حتى ساعة من النوم . . وأصل إلى مطار الوصول سعيدا . . وأبدأ أيام أجازتي مبتهجا . . ثم تمضي أيام قليلة فأحس أن كل شيء قد عاد إلى ما كان عليه وبدأت أيام الإجازة تثقل عليّ ، وبدأت أعد الأيام الباقية على موعد العودة لكل ما ضقت به واكتأبت منه وتلفت حولي أرقب الشباب

السعداء . . بل والكهول أيضا وأتساءل : لماذا هم مبتهجون هكذا هل لأنهم شباب والحياة ممتدة أمامهم تعددهم بالكثير والكثير ؟ وإذا كان هذا هو السر . . فلماذا يسعد الكهول والشيخ أيضا ؟ هل حياتهم جميعا خالية من المشاكل والأحزان ؟ ليس هناك من تخلو حياته من الهموم مهما كان حجمها . . ولا بشر بلا مشاكل ولا أحزان إلا في الجنة التي «دعواهم فيها سبحانهك اللهم وتحيتهم فيها سلام» . .

ووجدت نفسي وهذه الخواطر تدور في ذهني أمام دار للسبينا تعرض فيلما أسبانيا اسمه النلال الساخنة فدخلتها بغير تفكير . . كان الفيلم عن زوجة شابة اكتشفت أن زوجها كان في بعض الفترات على علاقة بأمها المطربة الكبيرة المشهورة فقتلته واتجهت الشكوك إلى كثيرين من بينهم أمها . . واستغرقتني أحداث الفيلم إلى أن تنبهت على آلام المطربة التي ضاقت بتعذيب إبنتها لها لخطيئتها القديمة ، تغنى أغنية جميلة حزينة تقول فيها :

- تذكرني . . وأنت تعاني بشدة .

- تذكرني . . وأنت تتألم .

- تذكرني . . كلما واجهت أمرا صعبا في حياتك .

- إنك في موضع القلب من جسدي .

- وأريد أن أشاركك عذاباتك وآلامك .

وبكت المطربة الكبيرة وهي تغنى هذه الأغنية بحسرة . . فوجدت دموعي تفرق في عيني في الظلام ، وتعجبت من نفسي بل وخجلت منها . . ولم أستطع مواصلة المشاهدة ، وتسلفت من دار السينما

إلى الشارع ومشيت بلا هدف ولا متعة . .

وفي اليوم التالي عدت إلى نفس الدار لأستمع إلى هذه الأغنية الجميلة مرة أخرى وأسجل كلماتها في مفكرتي وتنبهت إلى أنها تصور بصدق حالة وجدانية حقيقية من أحوال الإنسان هي أننا حين نعاني بشدة فإن أول من نتذكره هو : من « يحتل موضع القلب من أجسادنا » ، ونفعل ذلك كأننا نحاول أن نحتمي به مما يؤلمنا . . أو كأننا نتمنى لو كان معنا ليخفف عنا معاناتنا . .

لهذا فما أحوالنا دائما لمن يهتمون بأمرنا ونهتم بأمرهم . . ونعرف عن يقين أنهم يتألمون لآلامنا . . ويسعدون لسعادتنا . .

وما أجهل أن يجد الإنسان من يشاركه شجونه ويشعره بأنه ليس شجرة وحيدة نبتت في صحراء كل من فيها مشغول بنفسه عن الآخرين . . فالإنسان كائن اجتماعي لا يسعد إلا وسط بشر مثله وآلامه جدية دائما بأن تنال من الآخرين الإهتمام والإحترام مهما كانت صغيرة ، لسبب هام هو أن الإنسان نفسه وكل ما يخصه من شئون وشجون جدير بالاحترام . . إذن كيف نهين إنسانيته . . أو نقهره . . ونعذبه . أو نتجاهل آلامه أو نستهزئ بها . .

لقد سألتني مديع بإذاعة الشرق الأوسط منذ أيام : ما هو الأسلوب الذي لا تسمح لنفسك بأن تستخدمه في الرد على هموم القراء . . فأجبت به بلا تردد : أسلوب السخرية من هموم الآخرين ولو كانت تافهة . . أو أسلوب الإستهزاء بها لأن كل ما يخص الإنسان جدير بأن يعامل بجدية وبكل الإهتمام والإحترام . .

وستلقت مرارًا ما هي الشروط التي ينبغي أن تتوفر فيمن يتصدى لإبداء
الرأى فى مشاكل القراء ، . فأجبت فى كل مرة : لا شىء سوى أن يكون
مستعدًا لأن يحترم آلام الآخرين ويعطيها بعض وقته واهتمامه ، ذلك أن
مجرد الإستماع باحترام واهتمام لمن يشكو إليك قد يخفف عنه بعض همومه
ويشعره بالمشاركة الإنسانية ويزيح عن صدره بعض بخارها المكتوم ، أما
الرأى والمشورة فليس «المستشار» بأحكم من «المستشير» ، لكنه فقط ينظر
إلى المشكلة من خارج دائرتها فيتسع له مجال الرؤية أكثر مما يراه الغارق فيها
الذى ينظر إليها من مركز الدائرة ، كما أنه يفكر مع صاحب المشكلة وهو
ليس واقعا تحت ضغط انفعالاتها وتأثيراتها النفسية التى قد تؤثر على صفاء
تفكير صاحبها . .

لهذا فكل إنسان يستطيع أن يقوم بهذه المهمة فى دائرة حياته الشخصية
ومع أهله وأصدقائه فتتسع دائرة المشاركة الإنسانية . . بدلا من أن تنحسر
ويتحول كل إنسان إلى سجين فى زنزانة انفرادية هى زنزانة شجونه وهمومه
وأفكاره ، إن هناك كلمة إنجليزية جميلة تقول : الناس يبنون جدراناً بدلا
من أن يبنوا جسورا . . لهذا فهم يزدادون وحدة . . وتباعدا بدلا من أن
يزدادوا اقترابا . .

وهذا صحيح للأسف . . لأن الجدران تحجب البشر عن البشر ،
والجسور تصل بينهم ، نحن فى حاجة إلى مزيد من الجسور الإنسانية
وقليل من الجدران العازلة . .

واستعداد كل إنسان لأن يستمع للآخرين ويفكر معهم وفيهم «جسر»
من هذه الجسور ، وانكفاء كل إنسان على نفسه ومشاكله وعزوفه عن أن

يعطى من اهتمامه للآخرين . . « جدران عالية » تحول البشر إلى جزر متباعدة وتزيد من جفاف الحياة وعنائها ، والإنسان يحتاج دائماً إلى « أين » يضع عليها رأسه ويستريح وييشها شجونه وهمومه ، وهو احتياج إنسانى قديم تأكدت من أهميته عندما أخطأت ذات مرة منذ عشرين سنة وبحث ببعض ما كان يقض مضجعى لصديق عجيب لى ، كان من طباعه الغربية ألا يطيق سماع شكوى لأحد مع كثرة شكواه هو للآخرين ، ويتهرب من ذلك بكل وسيلة بل ويعتبره محاولة عدوانية لإفساد صفائه ! وقد ينهر صديقه إذا اخطأ وحاول إشراكه معه فى بعض همومه وكان قد جاء إلى مكتبى ليصطحبنى إلى بيت صديق نمضى معه السهرة وغادرنا المكتب وسرنا على الأقدام بضع خطوات . . وكنت ضيق الصدر بما أعانيه . . واحس بتعاسة شديدة ولم أكن أريد شيئاً من صديقى هذا سوى أن يسمعنى . . فنسيت حذرى منه ومعرفتى بطبيعته وانسقت وراء ضعفى وبحث له ببعض همومى وتنهت خلال استغراقى فى ذلك إلى أنه يتلفت حوله متشاغلاً عنى . . ثم فرجت به يصيح فى أثر سيارة أجرة عابرة : تاكسى . . تاكسى ! فتوقفت عن الكلام مذهولاً وسألته بدهشة عن سبب محاولته إيقاف سيارة أجرة ، فأجابنى مرتبكاً وهو لا يكاد يدرى بما يقول : لكى تنقلنا إلى بيت الصديق لأننا تأخرنا عليه ! فأحسست بالعرق البارد يكسو جسمى وأطرافى وشعرت بخجل ربه لم أعان مثله فى موقف آخر فى حياتى وسحبته من ذراعه صامتاً إلى مكان انتظار السيارات حيث تنتظرونا سيارتى وسيارته ! وركبنا إحداهما وتركنا الأخرى وأحسست بغصة مؤلمة تعقد لسانى فلم أنطق بحرف . . ولم أسمع شيئاً مما قاله مبرراً به « نسيانه »

فجأة أن معنا سيارتين . . وكيف أنه ينسى ذلك كثيرا فيركب سيارة أجرة ويترك سيارته مما يثير له بعض المشاكل ! . . وظللت صامتا إلى أن وصلنا بيت الصديق وأمضيت فيه أتعس سهراتي . .

ومع ذلك لم أغضب منه . . وإنما غضبت من نفسي لأنني طلبت حاجتي عند من ليس مؤهلا لأن يلبى لي ، واستمرت صداقتنا بعدها عشرين سنة لم أقع خلالها معه في نفس « الخطيئة » مرة ثانية . . وفتحت له صدري طواها بساحة ليصب فيه همومه وشجونه وأحزانه كلما احتاج إلى ذلك ، ولم يكن هذا قدرى معه وحده . . بل كان كذلك مع البعض في محيط الأهل والأصدقاء الذين كنت أسمع لهم دائما ولا يسمعون لي . . ولا أثقلهم بما لا يطيقون مسلما بأن كل إنسان ميسر لما خلق له ، وبأنه ليس من الحكمة أن نطلب من البعض ما لا تسمح به طبائعهم حتى لا نحزن إذا تلقينا منهم ما هو أقل مما نريد ونتوقع ولكيلا نفقدهم أو ترتفع جدران عالية بيننا وبينهم . .

أكون هذا سببا من أسباب اختياري للإهتمام بهموم الآخرين في كتاباتي بوجه عام ؟ أو في أنى لا أصدق قارئاً أو صديقاً يريد أن يشنى همومه ولو تم ذلك على حساب وقتي وعقلي وأعصابي ؟

لا أعرف على وجه اليقين . . بل إنى لا أعرف حتى الآن إذا كنت أنا الذى اخترت هذا الاتجاه إرادياً . . أم هو الذى اختارنى بلا إرادة من جانبى . . لكنى أعرف على الأقل عمق الألم . . بل « والخجل » اللذين يحسُّ بهما الإنسان حين يصدى بأن مشاعره وأحزانه لم تلق ما تستحقه من الاحترام عند من توجه بها إليه . . وطلب منه عونه عليها . .

وأعرف أيضا . . أننا كما قالت أغنية المطربة الأسبانية الحزينة نحتاج
جميعاً لمن نتذكره ونحن نعاني بشدة . . ونأمل في مشاركته الوجدانية لنا
على البعد . . ونعلق بالأمل فيه لكي يساعدنا على آلامنا سواء أكان يحتل
موضع القلب من أجسادنا . . أم موضع الصديق من مشاعرنا وعقولنا . .
وأعرف أن أتعس الناس هو من لا يجد لا هذا . . ولا ذاك . . أما
أبأسهم . . فهو بلا جدال من يتلفت صديقه حوله باحثاً عن سيارة أجرة
وهو مستغرق في بئس همومه وأحزانه لهذا الصديق سامحه الله وسامح أمثاله
من بُناة الجدران الكثيبة العازلة بدلاً من الجسور الجميلة الواصلة بين
البشر . .

سنة حلوة .. يا جميل !

كانت ليلة حافلة بالغرائب والمفاجآت ! . . فقد كنا في أجمل سنوات الشباب . . وقد جمعت بيننا الاهتمامات الثقافية وحُب الفن والسهر فأصبحنا «عصابة» مترابطة من بعض الصحفيين والكتاب والشعراء والفنانين نمضى معظم سهراتنا معًا فيغنى أصحاب الأصوات الجميلة منا وكانوا أربعة منهم مطربة محترفة والباقون من الهواة والمهاويات . . ويعزف على العود من يجيدون العزف عليه وكان من بينهم ملحن شاب ومدير تصوير بالتلفزيون ودبلوماسى شاعر ومذيع ، ويمضى الوقت سعيدًا بين الغناء والعزف وإنشاد الشعر الذى يكتبه بعضنا والمناقشات الأدبية والتعليقات الذكية . . والقفشات الضاحكة ، . . وقد عُرفنا بين المعارف والأصدقاء بأننا لا نلبى دعوة أحد للعشاء أو السهر إلا إذا كان باقى أفراد الشلة مدعوين معنا وألا فسوف نسهر وحدنا فى أحد بيوتنا . .

وكان أكثر الداعين لشلتنا . . والاستمتاع بصحبته محاسب فى منتصف العمر يقيم فى فيلا بالمعادى . . يكتب الشعر العمودى ويضيق بأعمال المحاسبة ورتابة الحياة العملية التى فرضتها عليه . . وينجذب إلى جونا البوهيمى ويدعونا كل ١٠ أيام إلى العشاء والسهر معه فى بيته ووسط أسرته .

وكانت السهرة تبدأ عادة بالسمر ثم العزف والغناء ثم ينتهز مضيفنا الفرصة التى ينتظرها منذ البداية لينشدنا «قصيدة الليلة» ويسمع رأينا فيها . وكان شاعرا مجيدا بحق ونستمتع بانشاده للشعر ونحن من هواته ، لكننا كنا نضيق فقط «بإسرافه» فى كتابة الشعر . . وننصحه بتركيز قصائده فى أبيات معدودة معبرة لكى تخف وطأتها علينا . . فيستجيب مرة . . ثم ينساق وراء طبيعته مرات وينشدنا مطولاته ! وكان من عادتنا أن نقاطعه بصيحات الاستحسان وطلب إعادة بعض الأبيات كل فترة فأصبحنا نقاطعه بصيحات الاستحسان المبالغ فيه وطلب التوقف قليلا بين كل مقطع وآخر لكى نتفكر فى معنى الأبيات السابقة ونستجلى حلاوتها وبلاغتها قبل أن تضيع منا .

ثم تصاعد الأمر تدريجياً حتى انتهى إلى أن أصبح يُنشدنا بيتاً واحداً من الشعر . . فنظل نستحسنه بعاصفة من الهتاف والتهليل والضحك تستمر بضع دقائق . . وندعى أن نشوة الشعر قد افقدتنا السيطرة على أنفسنا فضحك من ضحك . . وغنى من غنى . . وصرخ من صرخ ، إلى أن ينجح بصعوبة فى إسكاتنا والقاء بيت آخر . . فينفجر الضجيج من جديد ويتواصل عدة دقائق ، وخلال ذلك قد ينهض أحدها محاولاً الاعتداء عليه «بالضرب» من شدة النشوة متهماً إياه فإنه يريد أن «يُجئنا» ويفقدنا ما بقى لنا من عقول بهذا الشعر الخلاب ! . . ومضيفنا الشاعر لا يغضب وإنما يروى لنا عن الخليفة العباسى الذى شق قميصه طرباً لبعض أبيات الشعر . .

وفى كل مرة كنا نغادره فيها يقول بعضا لبعض ونحن على باب القفلا

أنا قد تجاوزنا الحدود مع الرجل الطيب الذى يُحبنا وسيغضب منا ويقاطعنا ، فلا تمضى عشرة أيام حتى يتصل بنا داعيا العصابة إلى سهرة جديدة !

وحين اقتربت ليلة رأس السنة الميلادية ذلك العام كان صديقنا الشاعر قد «حجزنا» منذ وقت مبكر وأقسم علينا ألا نسهر إلا فى بيته . . . واتفقنا على ذلك لكن واجهتنا مشكلتان طارئتان الأولى أن نجمة الشلة المطربة المحترفة المضروبة مثلنا بهواية الأدب قد لبث دعوة صديقة لها لقضاء السهرة فى بيتها بحى المعادى أيضا . . . وتنتظر منا ألا نتخلى عنها . . . والثانية : أن أحد أصدقائى كان يعيش قصة رومانسية مفاجئة ملخصها أن فتاة القلب التى تعاهد معها على الزواج وهما زميلان فى سنة واحدة بالجامعة قد تخلت عنه لأنه كعادته فى كل شىء فى حياته يفضل «التروى» ويطء الحركة والتمهل ، فلم يتمكن من إنهاء دراسته والتخرج إلا بعدها بثلاث سنوات فيئست منه وتزوجت غيره وسافرت معه للخارج . لكن فتاة القلب القديمة لم تسعد بحياتها مع زوجها وحصلت على الطلاق بعد كفاح مرير مع زوجها الذى يحبها ويأمل فى عودتها إليه . . . وعادت لمصر واتصلت بصديقى والتقى لأول مرة بعد ٦ سنوات وأبدت ندمها على تخليها عنه وطالبته بأن يصحح خطأهما المشترك ويتزوجا قبل أن يضيع العمر . . . وأراد صديقى أن يفكر «بروية» فى الأمر . . . فصرخت فيه محذرا من أن يضيع فرصته الذهبية معها مرة أخرى ونصحتُه إذا كان ما زال يحبها ويرغبها بأن يرتبط بها على وجه السرعة ثم يفكر بعد ذلك «بروية» فى الأمور الأخرى خاصة وهى لم تنجب من زوجها . . . وتحمس صديقى قليلا

ثم فاجأني برغبته في أن يدعوني وشلتى إلى بيته في ليلة رأس السنة تلك
لكى يدعو فئاته معنا ويقدمها لأمه وأخوته لأول مرة ، ويسعدنا بسهرة
جميلة تكون بداية لمشروع الارتباط . . والح على في تلبية الدعوة لأنها تريد
أن تسهر وتسلى أحزانها وتغنى له . . سنة حلوة يا جميل . . وتودع الشقاء
الذى اعتصرها خلال السنة المنقضية .

ووقعنا في حيرة ، وتشاور حكماء الشلة ثم انتهينا إلى خطة فريدة هي أن
نبدأ الليلة مع صديقى وأسرته وفئاته من الثامنة مساء حتى منتصف
الليل ، ثم نتقل إلى بيت صديقنا الشاعر فى المعادى ، ثم نطوف فى الفجر
ببيت صديقة نجمتنا من باب المجاملة لها ولو لنصف ساعة . ونفدنا ذلك
فعلا . . واحتفلنا بالسنة الجديدة فى بيت صديقى ونزلنا منه بعد منتصف
الليل بدقائق ونزل معنا ليوصل فئاته إلى بيتها بسيارة أجرة ويودعها وداعاً
عاطفياً لاثقاً يحددان فيه موعد القران . وانطلقنا نحن إلى المعادى ووجدنا
الشاعر « العمودى » يتحرّق شوقاً لمجيئنا واجتمعنا حول المائدة وقد نوينا
أن نتظاهر بالأكل لأننا قد تناولنا عشاءنا فى بيت صديقى لكن الشاعر
المحاسب لم تراخينا فهددنا بأننا إن لم نأكل بالشهية الواجبة فإنه سوف
ينشدنا على الفور قصيدة من مائتى بيت فانقضضنا على الطعام غير عابئين
بما نعانيه من تخمة وأوجاع المعدة ! ثم فجأة رن جرس الباب ودخلت
صديقة مطربتنا ترتدى فستان سهرة فاخرا وتضع فراء أبيض على كتفيها
ومعها رجل فخم المنظر عرفنا انه زوجها وفهمنا أنها تتعجل صديقتها
للذهاب معها فتمنينا لو استطاعت أن تتخلص منها لنمضى باقى السهرة
فى مشاغبة صديقنا الشاعر . لكن السيدة وقفت باصرار تطلب من

صديقنا ومنا أن «نتفضل معها» غير مبالية بمراعاة مشاعر صاحب البيت الذى يستضيفنا . . . وتعجبنا لذلك وكدنا نرفض التحرك ولتذهب هى وزوجها إلى الجحيم ، لكن نجمتنا بدت مخرجة من صديقتها . . . وتنتظر منا ألا نخلد لها . . . فطلبنا من السيدة أن تنتظر على الأقل أن تنتهى من العشاء . . . فقبلت لكنها ظلت واقفة على رءوسنا كأنها تحرسنا . . . فتوتر الجو ولم نجد بُداً من الاستجابة لرجاء صديقتنا المطربة وودعنا صديقنا آسفين ومخرجين وركبنا السيارات إلى بيت ذات الفراء الأبيض الغريب . . . ودخلنا إليه فإذا بنا وسط صالون واسع كبير يتناثر فى جوانبه رجال وسيدات فى ملابس السهرة ، لا تبدو من سحنهم وأجسامهم القوية أنهم من هواة الأدب أو الشعر أو الفن الأصيل . ولم نجد مفراً من الجلوس منكمشين فى جانب من الصالون ونحن نأمل أن تنجح صديقتنا فى فك سجننا فى أقرب فرصة . . . وتلفت حولى اتطلع إلى وجوه الرجال الغليظة فتعرفت فيها على ثلاثة من مدربي الكرة ورجال الأندية الرياضية الذين تنشر صفحات الرياضة صورهم . . . وعرفت أننا قد دعينا إلى بيثة رياضية بعيدة عن طبيعتنا . . . ثم دُعيت مطربتنا الأولى للغناء . . . فلاحظت أنها قد استجابت على الفور وبغير تدلل كما تفعل أحياناً معنا قبل الغناء . . . ولاحظت أيضاً أنها لا تغنى استمتاعاً بالجلسة الطيبة والأصدقاء الذين يجمعهم الود والاخلاص كما تفعل معنا وإنما تغنى وحسب ! ثم لاحظت أن آداب الاستماع التى ألفناها فيما بيننا غير مرعية فى هذه الجلسة السمجة . . . فلا استحسان رقيق فى مكانه الصحيح . . . ولا انسجام مع غنائها ينم عن ذوق فنى ولا تعليقات تنم عن فهم للغناء أو الموسيقى ولا

شئء سوى «جعير» كجعير جمهور الكرة في المدرجات . ثم تعدى الأمر فساد الطبع الفنى إلى حدود قلة الذوق ، حين طالبها البعض بغناء أغنيات لمطربة أخرى منافسة ، وأشفقت على نجمتنا من الضيق الذى سيتتاها وهى ترفض بعصبية وتلقن الطالب درسًا فى الذوق ففوجئت بها تصمت قليلا ثم تتجاهل رغبته وتواصل الغناء بلا مزاج ! وأنهت غناءها وطلبت بالحاح من فنانى الشلة الهواة الغناء والعزف . . وفجأة قفز إلى ذهنى خاطر مزعج طردته من رأسى على الفور . لكنه عاد يلح على بعناد . . فملت على جارى الدبلوماسى الشاعر الذى نداعبه بمناداته بلقب السفير وقلت له : سعادة السفير . . يبدو أننا لسنا مدعويين كأصدقاء للسهر فى بيت أصدقاء جدد لنجمة الشلة . . وإنما نحن على الأغلب « فرقة » فنية مؤجرة لاهياء حفل رأس السنة عندهم ! ! فرقة هى نجمتها الأولى ، وفلان وفلان وفلانة الخ . . هم المطربون المساعدون والعازفون . . ونحن وباقى الشلة من «السيدة» والكورال ! لقد خانتنا فلانة «وقبضت» علينا . . والا فكيف تفسر عناد السيدة ذات الفرو الأبيض وإصرارها على أن نغادر معها بيت الشاعر بلا مراعاة لمشاعره؟ ! ونظر إلى صديقى مذهولا . . ثم قال بعد برهة : لقد شككت فى الأمر قليلا . . لكنى لم أتصوره . . يا دى الفضيحة . . كيف نخرج من هذا المكان !

ولم نكن رغم كل شئء على استعداد لأن نخرج صديقتنا المطربة الخبيثة رغم إحراجها لنا . . ولا لاثارة أزمة لأناس لم يخطئوا فى حقنا ولم يكن هناك مفر من الحفاظ على الشكل والصبر إلى أن تنتهى الليلة على

خير. وكعادتي في مثل هذه المواقف حاولت أن أتغلب على احساسى بالخرج بمحاولة تلمس الجانب الفنى والهزلى من الليلة . وكان صديقى الدبلوماسى معروفا بيننا بأنه «خواف» أكثر من اللازم فقررت أن أثير مخاوفه وقلت له : وهل تعرف ماذا يصيب «الفرق» التى تتقاضى أجرها لاهياء ليلة ثم ينصرف أفرادها أو بعضهم قبل الموعد المناسب ؟ فسألنى : ماذا تقصد ؟

فأجبتته وأنا أتكنم الضحك : كلك نظر . . هؤلاء رياضيون صحتهم جيدة ، وأضعف واحد فيهم يجرى حول الملعب كل صباح عدة دورات . . ونحن كما ترى لن نتحمل فى أيديهم «مناقشة» عنيفة واحدة لو حاولنا الانسحاب !

فاختلط الخرج بالخوف فى وجهه وهو يهمس : الله يخرب بيتك يا فلانة . . أهذه آخره الصداقة والعشرة !!

وغالبت الانفجار فى الضحك بصعوبة بالغة . . . وراقبت باقى أفراد الشلة وهم يتبينون حقيقة الأمر تدريجياً وتتجمع حبات العرق على جباههم إلى أن طلع صباح اليوم الأول من السنة الجديدة ولم نصدق حين وجدنا أنفسنا خارج الفيلا أمام سياراتنا . وبغير اتفاق مسبق بيننا رفض كل من ليس معه سيارة أن يركب مع المطربة وتركناها تنصرف وحدها فما أن اختفت عن الانظار حتى انفجرنا فى الضحك والسباب والوعيد بطردها من الشلة نهائياً . . اللهم إذا اعطتنا «أجرنا» بالحق والعدل كما قبضته !! وعدت إلى بيتى وأنا أقول لنفسى إنها ليلة لا تنسى ولم أتصور بعد كل ما جرى أنها يمكن أن تخفى لى المزيد من المفاجآت الا حين دق جرس

التليفون وسمعت صوت صديقى المتمهل فى كل شىء ضعيفا واهنا يطلب
منى ان آتى إليه على الفور فى مستشفى الهلال الأحمر ! وهرولت إليه
ففرجت بمنظره والضادات فوق وجهه ويديه والسجحات والكدمات
تملأها وقد انتفخ وجهه كالبالون ! . . وهتفت به : ماذا حدث ؟ فأجابنى
ببطء خُدننى عندك فى البيت أولا لكيلا ترانى أمى وأنا على هذه الحال
وسأروى لك ما حدث فى الطريق . . وأركبته السيارة بصعوبة بالغة وهو
يتأوه ويتوجع مع كل حركة . . وروى لى القصة فأنستنى كل ما جرى لى فى
تلك الليلة الغريبة . لقد قام صديقى التعس بتوصيل فتاته إلى بيتها
وتوقفت سيارة الأجرة أمام منزلها فنزل وانحنى على العداد ليقرأ «برويته» . .
وتهمل كعادته ثم رفع رأسه واستدار فإذا بلكمة كقذيفة المدفع تصطك
بوجهه وتحطم نظارته تعقبها لكمة تطرحه على الأرض تليها ركلات
كركلات الخيل القوية تنهال عليه وتدنك عظامه ووجهه وهو مستلق على
الأرض بلا حول ولا قوة ولا فهم لما يجرى . من الذى يضرب ؟ لا يعرف !
لماذا يضربه ؟ لا يعرف أين فتاته من كل ذلك ؟ لا يعرف . . وأخيرا
استسلم للاغماء ثم أفاق منه فوجد نفسه جالسا على الرصيف مبتل الوجه
بالماء والدماء تسيل من وجهه وبجواره رجل لا يعرفه مخمور ويبكي
ويطلب منه الصفح لانه لم يتمالك نفسه حين رآه يعود مع مطلقة التى
يحبها ولن يسمح لرجل آخر بأن يأخذها منه بعد منتصف الليل فعرف أنه
الذى تريد مطلقة أن تتزوجه فأراد أن يفتك به وبها . . ولكنها كانت أسرع
استكشافا للخطر ، فمأ أن رآته يترصدها قرب البيت حتى صرخت فزعة
وهرولت من سيارة الأجرة وصعدت الدرج بسرعة ألف ميل فى الثانية إلى

شقتها وأغلقت الباب عليها فلم يتمكن منها . . وقد تم كل ذلك
وصديقي «منحن» على عداد سيارة الأجرة يتفحصه بامعان ثم استدار
ليواجه نورًا هائجًا على غير انتظار !

ورغم كل ذلك فلقد رفض صديقي بعناد واصرار أن نتوجه لقسم
الشرطة للإبلاغ عن الجريمة وسامح قاتله ملتئمًا له العذر . . وكان كل
ما طلبه منه بعد «الطحن» الذي تعرض له هو أن يتفضل بتوصيله
للمستشفى فقام الآخر بذلك وتركه هناك وانصرف خوفًا من أن يبلغ
المستشفى الشرطة ضده . . وجاء دورى أنا لالخراجه منها واصطحابه إلى
البيت فعدت إليه معه وأنا فى قمة الألم والانزعاج . بعد أن كنت منذ فترة
قصيرة فى قمة الحرج والكسوف .

ألم أقل لك إنها كانت ليلة لا تنسى ؟!

والشوق مركبى !

أحب شهر رمضان وأشقى بلياليه !
أحب الصفاء الذى يتبدى فى الوجوه عند اقتراب المغرب . . وأحب
السكون والسلام اللذين يخيمان على الدنيا قبيل الافطار وارتقب سعيك
صوت الشيخ محمد رفعت يؤذن للمغرب بصوته الخاشع النبيل ،
والفانوس الملون الكبير يضىء فى مسكنى مع انطلاق المدفع ويلقى بظلاله
الملونة على المكان . إشارة الافطار ترتبط عندى من ذكريات الطفولة
بحاسة البصر لا بحاسة السمع كما هو الحال مع أهل القاهرة والمدن
الكبرى . ففي مدينتى الصغيرة التى نشأت بها لم يكن لنا مدفع للافطار .
وإنما كنا نتواصى كل يوم بالاحتراس من الافطار عند سماع صوت يدوى فى
الراديو . لأن مدينتى تفطر بعد القاهرة بـ ٧ أو ٨ دقائق . وما كان أبطأ
هذه الدقائق القليلة علينا ونحن صبية صغار وما أكثر ما تساءلنا بضيق
لماذا يستمتع أهل العاصمة بطعامهم وشرابهم قبلنا . مضت سنوات
طويلة حتى استوعبت عقولنا الصغيرة حكاية خطوط الطول ومغيب
الشمس فى مدينة قبل أن تغيب فى مدينة أخرى واكتفينا باعتبار مدفع
القاهرة بشيرا بقرب ترطب الألسنة الجافة بالشراب وعبوننا تتركز على مثذنة
مسجد سيدى إبراهيم الدسوقي العالية نرقبها من الشرفة . . وننتظر

«البشارة» ! بشرانا هى إضاءة فروع اللمبات الكهربائية التى تحيط بها فإذا أضاءت هللنا فرحين كما يهلل جمهور الكرة عند إصابة المرمى . . وأسرعنا إلى الماء والشراب وصوت المؤذن يدعو الصائمين للتحلل من صومهم . كانت ليالى رمضان بالنسبة لى فى سن الشباب سمرا بريئا وجولات ساهرة فى حى الحسين ، وأصبحت الآن عملاً متصلاً يستغرقنى من بعد الافطار إلى ما قبيل الفجر . «يفاجئنى» الفجر كل يوم ولم أنته بعد عما أريد أن أكتبه أو أؤديه ولابد من محاولة الاستمرار بلا قهوة ولا شاي . يجافينى النوم فلا أستطيع الاستعانة عليه بشراب مهدئ للأعصاب كما أفعل فى الأيام العادية . فى فراشى أوأصل القراءة حتى يسقط الكتاب من يدي وأغيب فى النوم مؤملاً أن أنام ساعات كافية تجدد نشاطى ، فأصحو بعد دقائق وأمد يدي والتقط الكتاب من الأرض وأعاود القراءة إلى أن يسقط مرة أخرى وهكذا عدة مرات حتى الصباح وأحياناً حتى الظهر . قراءتى فى شهر رمضان تنحصر فى القراءات الدينية وبعض كتب التاريخ الإسلامى التى سبق لى قراءتها لكنى تسترخى أعصابى المشدودة وتقربنى من أمل النوم . انتهيت قبل رمضان بعشرين يوماً من مشروعى الخاص لقراءة القرآن قراءة متأنية مستعينة على دراسته وفهمه بالتفاسير الكبرى . قبل أن أبدأ هذه المحاولة انتهيت من قراءة التوراة والانجيل واستغرقت قراءتهما عامًا كاملاً من عمرى وحين بدأت قراءتى أو دراستى للقرآن سجلت فى فهرس الكتاب بالقلم الرصاص تاريخ بدء المحاولة وعندما انتهيت من قراءة آخر سورة رجعت للبداية فاكتشفت أنى قد بدأت فى ٢ / ٢ / ١٩٨٨ وانتهيت فى ٤ / ١ / ١٩٩٢ أن أى محاولتى قد استغرقت ثلاث سنوات تقريباً

تخللتها بعض فترات التوقف القصيرة . ورغم ذلك فلقد كانت النتيجة الأولى التى خرجت بها منها هى أنى فى حاجة لبدء دراسة أوسع للقرآن الكريم .

يا إلهى كيف استطاع الأئمة العظام أن يحفظوا ويستوعبوا القرآن الكريم وأحكامه والحديث النبوى الشريف ودلالاته ثم يجلسوا للناس فى مجالس الافتاء وبعضهم قد أجزى للفتيا من شيوخه بعد امتحان عسير فى القرآن والحديث والفقه وهم فى سن الشباب ؟ هؤلاء وأمثالهم انقطعوا للعلم منذ الصبا وحفظوا القرآن والحديث وارتحلوا من مكان إلى مكان يسمعون من الشيوخ الكبار وبعضهم كان يسافر السفر الطويل بالشهور ليستقصى حديثا شريفا ويسمعه من رواة ويمتحن صحته وأمثالهم هم من عناهم الرسول الكريم بقوله : أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . نعم هم نجوم تهدى الضالين فى صحراء الخيرة فقد نقلوا عن التابعين والتابعون نقلوا عن الصحابة والصحابة أخذوا عن معلم البشرية صلوات الله وسلامه عليه والأمين قد نقل الرسالة عن رب العرش العظيم . أتأمل كثيرا قصته مع أصحابه وهم فى أحد أسفارهم خلال شهر رمضان وقد صام من صام وأفطر من أفطر مستخدما رخصة الافطار فى السفر فلم ينه صائما ولا مفطرا غير أن بعض الصائمين قد اشتد بهم الجوع والعطش فى قبض الصحراء فنصحهم برفق بأن يفطروا فاستحيوا أن يفعلوا وواصلوا الصوم حتى أشرف بعضهم على الهلاك فجاءهم الأمين مغضبا يقول : يا معشر «العصاة» انى مفطر فافطروا !

أتأمل كلمة «العصاة» ويزداد عجبى واعجابى بإنسانية المعلم ورحمته

فقد اعتبرهم بتعتهم مع أنفسهم قد عصوا أمر ربهم بألا يوردوا أنفسهم
مورد التهلكة وأراد بذلك أن يحثهم على الرحمة بأنفسهم .

أضيق كثيرا بطائفة من الأطباء يخرجون علينا كل رمضان بحديث مكرر
معاد عن أن الصوم يفيد الجسم ولا يضر الصحة ، فأكاد أسألهم في كل
مرة : وماذا لو كان ضارا بالجسم والصحة . . أكنا نمتنع عنه ؟ . إننا نصوم

لأن الله قد أمرنا بالصيام ولأن كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فهو لله كما جاء
في الحديث القدسي وليس يعنيني كثيرا إن كان ضارا أو مفيدا لها ، لأننا
نصدع بها نؤمن ونؤمن بها جاء به موسى وعيسى ومحمد ولا يجوز في رأيي
مهما كانت النوايا طيبة أن نخضع ركنا من أركان الإسلام لجدل العلماء
واختلاف الآراء بين مؤيد للفوائد الصحية وبين مخالف لها . فالإيمان هو
التصديق بالقلب والتفكير فريضة دينية وسيلتها العقل والدليل العقلي
وليس العلم التجريبي الذي تتغير حقائقه من جيل إلى جيل وفرائض
الإسلام الخمس لا تحتاج إلى وساطة بين الخالق والمخلوق ويستطيع المرء أن
يمارسها جميعا بنفسه بلا وسيط بينه وبين ربه .

ومن كلام الصوفية الجميل الذي أطرب له وأستعيده كثيرا خلال
قراءات رمضان : إن المحبة هي الموافقة أي الطاعة له فيها أمر والانتهاة عما
زجر والرضا بما حكم وقدر .

وأحسب أن معاني الإيمان تتمثل بأفضل صورة في مثل هذا الكلام
الجميل الذي يمزج بين المحبة والطاعة والانتهاة والإيمان بالقضاء والقدر
بغير حاجة إلى مزايدة بعض المزايد . أما قمة طربي فحين أقرأ ما رواه علي

ابن أبي طالب رضى الله عنه من أنه قد سأل الرسول الكريم عن سنته فقال:

«المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر رداى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقررة عينى فى الصلاة »

هذه هى سنته صلوات الله وسلامه عليه ، فهلاً لاحظت مفردات المعرفة والعقل والعلم والذكر وهل طربت كما طربت أنا لمفردات الحب والشوق والصبر والرضا فى حديث من لم يكن ينطق عن الهوى ؟ وهل مست قلبك عبارتا «الحزن رفيقى والشوق مركبى» كما مست قلبى ؟!

إن الحب بمعناه الكبير يشمل الحب الإلهى وحب البشر وحب المرء لأخيه والأم لولدها والزوجة لزوجها والرجل لزوجته وولده وحب الخير للجميع ، ومن بين قراءات رمضان التى تستوقفنى كثيراً ما قاله الامام بن حزم الأندلسى فى باب طى سر المحبين فى كتابة طوق الحمامة من أن بعض صفات المحبين الكتمان باللسان والتصنع باظهار الصبر وحسب المرء أن يعف عن محارم الله عز وجل والتى يأتئها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة ، أما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه . . إذ القلوب بيد مقلبها !

صدق الله يا شيخنا الامام . . إن القلوب بيد مقلبها . . فما يملك المرء كما قلت أنت إلا «حركات جوارحه المكتسبة» أى حركات جسمه . .

فيستطيع أن يرفع يده أو ساقه أو يخفضها . . لكنه لا يستطيع أن يفتح قلبه لمن انغلق دونه ولا أن يخلقه دون من انفتح له دون إرادته . . وتطول قراءات رمضان . . وبين سقطه الكتاب واستعادته من الأرض توقفت ذات مرة متفكرا أمام مشهد الختام في حياة الخليفة المعتصم العباسي وهو يحتضر ويقول نادما : ذهبت الحيلة فلا حيلة . . اللهم أنى أخافك من قبل ولا أخافك من قبلك وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي ! وأجدني بغير وعي أردد وراءه نفس الدعاء : نعم نعم نخافك من قبلنا لأننا بشر خطاءون ولا نخافك من قبلك لأن رحمتك قد وسعت كل شيء فاعفر لنا اللهم ما تقدم وما تأخر من ذنب انك سبحانك من لا ينقطع فيه الرجاء . واكتفى بهذا القدر . . فلقد سقطت الظلال الملونة فجأة على الورق وانطلق مدفع الافطار !

ثم انتصار!

مغرم أنا بقراءة قصص حياة العباقرة والناجحين في كل مجالات الحياة المختلفة . . واجد دائما متعة ذهنية كبيرة في تتبع خطوات كفاحهم لاثبات ذاتهم وعثراتهم الأولى إلى أن تصل اللحظة التي يسميها نقاد الدراما بلحظة التنوير حين تبدأ عقدة المسرحية في الانفراج وتتخذ طريقها للحل . وينتصر الخير والحق .

ولأن النجاح ثمرة عادلة للكفاح والعبقرية والاختصاص فإنني اسمى هذه اللحظات دائماً بلحظات انتصار الحياة على قوى الاحباط واليأس واضطهاد الموهبة واستمتع باسترجاعها والعودة لقراءتها بين حين وآخر.

ومع أن نجيب محفوظ لم يكتب قصة حياته بقلمه حتى الآن . . فلقد قرأتها في الكثير مما كتب عنه . . ومع أنه لم يعرف شقاء الحرمان في طفولته وصباه ، لنشأته في أسرة متوسطة صغيرة ، فلقد عرف مرارة الاحباط والتجاهل ، وتأخر الاعتراف بعبقريته سنوات طويلة استغرقت شبابه ومعظم كهولته . . فقد ظل ١٠ سنوات يكتب المقالات الفلسفية بغير أن يلتفت إليه أحد ثم بدأ يكتب روائعه القصصية التي اشتهرت فيما بعد

ونشرها جميعا فلم توزع كل منها أكثر من ألف أو ألفى نسخة على الأكثر، ثم خطر له أن يكتب رواية طويلة تصاحب أسرة من بدايتها إلى شيخوختها وتعكس الحياة الاجتماعية والفكرية على مدى ٥٠ سنة، فظل أكثر من عامين يكتب رائعته الثلاثية لمدة ٥ ساعات كل يوم . . وانتهى من كتابتها في ألف صفحة من حجم الفولسكاب . . ثم قام بتبييضها بخط يده أيضا وحملها فخورا بها إلى ناشره الأستاذ سعيد السحار ووضعها أمامه على مكتبه فنظر إليها الناشر منزعجا من ضخامتها وقال له : ما هذه الداهية التي جئتي بها !

ورفض نشرها فعاد بها نجيب محفوظ كسير الخاطر حزينا على جهده الضائع وادعها أحد أدراج مكتبه وانصرف عنها إلى شئون حياته . . وانقطع عن الكتابة الروائية ٥ سنوات كاملة ثم دار حوار ذات ليلة بينه وبين المرحوم يوسف السباعي في نادي القصة عن هذه الرواية فقرر السباعي نشرها مسلسلة في مجلة الرسالة الجديدة . . ونشرت حلقاتها الأولى فاجتذبت القراء إلى متابعتها . . وقرأها عميد الأدب العربي طه حسين فكتب عنها صفحة كاملة في جريدة الجمهورية بعنوان : بين القصيرين قصة رائعة للأستاذ نجيب محفوظ . . بل وقرأها الناشر الذي استهول حجمها فشغف بها إعجابا وحبا . . ودعا صديقة نجيب محفوظ وقال له ان القصة ناجحة ولكن هناك استحالة في نشرها في كتاب واحد لهذا فلا بد من تقسيمها إلى ٣ أجزاء . . وهكذا صدرت ثلاثية بين القصيرين وقصر الشوق والسكرية التي أعيد طبعها بعد ذلك ١٤ أو ١٥ طبعة عدا الطبعات المزورة في الخارج . . والطبعات المترجمة عنها !

وجاء التقدير الأدبي إلى نجيب محفوظ بعد طول انتظار . . وواصل الأديب العبقري نسج رواياته وقصصه وحياته البسيطة . . إلى أن استسلم لنوم الظهيرة ذات يوم فايقظوه منه ليبلغوه بفوزه بجائزة نوبل . . ولم يصدق الخبر ولم يتوقعه حتى فوجئ بالسفير السويدي يدخل عليه مسكنه الصغير.

وعلى عكس نجيب محفوظ فلقد عرف الفنان العالمي شارلى شابلن البؤس والحرمان والتشرد في طفولته حتى أودع ملجأ المتشردين لعجز أمه عن إعالتة . . وحتى جُنت والدته من أثر سوء التغذية وغادر الملجأ ليلتقط طعامه من صناديق القمامة ويعمل بائعاً للصحف وعامل مطبعة ونافع زجاج وصبي قاطع أخشاب ويطوف بمكاتب وكلاء الفنانين باحثاً عن دور صبي في أية مسرحية ليس حباً في الفن ولكن طلباً للقمعة العيش حتى يحصل بالصدفة على دور في مسرحية مقابل ٥, ٢ جنيه في الأسبوع فيعتبرها ثروة عظيمة . . وتفشل المسرحية لكنه يلفت انظار النقاد بموهبته الفطرية في الاضحاك والتمثيل ثم يؤدي بعد سنوات دوراً أكبر وهو في السادسة عشرة من عمره أمام ممثل كبير. وكانت المسرحية لا تستثير ضحكة واحدة قبل دخول نجمها الأوحده . . فدخل الفتى إلى المسرح وبدأ يتحرك على سجيته ويهز اكتافه ويطرقع أصابعه ويتعثر في قطع الأثاث فاذا بالضحكات تتعالى . . ويسمع النجم الكبير لأول مرة ضحكة تنبعث من الصالة قبل دخوله فيرقب الممثل الجديد من وراء الكواليس ويهنته.

ويرحل شابلن مع فرقة مسرحية إلى أمريكا ويؤدي دور شاب مخمور في إحدى المسرحيات . . فيعجب به شاب من بين المتفرجين ويقول لفتاته

بجانبه : لسو أصبحت ذات يوم منتجًا سينمائيًا فسوف أسند دورا كبيرا لهذا
الفتى !

وبعد ثلاثة أعوام من هذه الليلة أصبح الشاب شريكا في شركة للإنتاج
السينمائي فأرسل إلى الفرقة المسرحية يسأل هل عندكم ممثل أسمه شافن أو
شابلن أو شيء كهذا !

وتكون هذه هى بداية شابلن مع فن السينما . . ويتكرر شخصية
الصعلوك التى اشتهر بها . . وتحقق افلامه ارقاما قياسية من الأرباح . .
وتهطل أمطار الشهرة والنجاح غزيرة ويدخل عليه اخوه بعد سنوات قليلة
وشابلن يعزف على الكمان وهو يضع فوطة حول جسمه بعد خروجه من
الحمام ويقول له : مبروك لقد أصبحت من أصحاب الملايين فقد وقعنا
عقدا بمليون و ٢٠٠ ألف دولار !

ويستمر الشاب فى العزف وهو يقول : جميل . . رائع . . ويتبادلان
النظر كأنها يتذكرا كيف كادت حياة أمهما تتوقف ذات ليلة على فنجان
من الشاي الساخن يحميهما من التجمد من البرد ولم يجدها ! . .

ومثل شابلن فى طفولته وصباه عاش فيلسوف الموسيقى ريتشارد فاجنر
سنوات صباه وشبابه يعانى من البؤس والحرمان مضافا إليها افتقار
التقدير لموهبته الموسيقية بالرغم من نبوغه وجمعه بين عبقرية التأليف
الموسيقى والنبوغ فى كتابة القصة والمقال . . فقد انهى الشاب فى دراسته
الثانوية والتحق بالجامعة ليدرس الفلسفة . . ثم بدأ يؤلف أوبراته الشهيرة
ويعرضها فيقابلها الألمان بالسخط والانصراف عنها لمخالفتها للأوبرات
التقليدية التى تعودوا عليها ويضطر الموسيقار العبقرى للترحال بين
عواصم أوروبا فلا يلقى فى أى منها التقدير الذى يستحقه ويعود لبلاده

محبطاً وينهمك في تأليف إحدى أوبراته وهو بلا مورد تقريباً فيكاد ذات مرة أن يهلك جوعاً لولا إن انقذته زوجته بشراء وجبة طعام دسمة تعهدت كتابياً بدفع ثمنها فيما بعد ويستعد لعرض أوبرا «رينزي» التي ألفها وينهمك في تدريباتها ويبدى ممثل الفرقة الأول إعجابه بألحان الأوبرا ويعبر عن إعجابه مازحاً بإخراج قطعة نقود معدنية يقدمها لفاجنر تعبيراً عن إعجابه ويدعو الممثلين الآخرين لأن يفعلوا مثله فيستجيبون ضاحكين . . ويتقبل الموسيقار النقود ضاحكاً وتكرر القصة طول أيام التدريبات وتصبح دعاية كل يوم والممثلون لا يعرفون إنه لولا هذه «الدعاية» لما وجد فاجنر ثمن وجبته كل يوم ثم تعرض الأوبرا فتحقق نجاحاً مذهلاً لأول مرة وتبدى امرأتان المانيتان إعجابهما بالموسيقار الموهوب . . وتبلغ أنباء النجاح اسماع ملك مقاطعة ساكس فيأمر بتعيين فاجنر رئيساً للفرقة الموسيقية الملكية ويمجد الموسيقار لأول مرة دخلاً مضموناً يكفيه للتفرغ للموسيقى وتدعوه لندن التي سبق أن انكرته من قبل لعرض أوبراته فيها فيذهب إليها غازياً ويعود لألمانيا فيجد أوبراته تحقق نجاحاً مذهلاً يتعجب له حين يتذكر الاحباط الذي أصيب به منذ سنوات قليلة . .

وبالرغم من أنه لم يتخلص من الديون معظم سنوات حياته فإنه لم يعد أبداً إلى حالة البؤس الذي عاشه في شبابه . . وعاش حياة عريضة نال فيها معظم ما أراد . . ولم يتخل أبداً عن اقتناعه العجيب بأنه لا يقتصر . . لكن «العالم مدين له بما هو في حاجة إليه» كما كان يردد ساخراً أو مصداقاً الله أعلم !

ومع أن الفيلسوف الألماني شوبنهاور لم يواجه مشكلة مادية حقيقية في

حياته لنشأته في أسرة ثرية . . فلقد واجه الانكار والتجاهل وانعدام التقدير معظم سنوات حياته . . وعاش مجهولا أو شبه مجهول تساوره الشكوك في الجميع ومفتقدا الأصدقاء ومتذمرا من كل شيء . . ينام وقد وضع مسدسًا محشوا بالرصاص تحت وسادته ولا يسلم ذقنه لحلاق أبدا خوفا من أن يتعرض لأذى أو للعدوى ويصحب معه كوبًا جلديًا إلى أى مكان يذهب إليه ولا يشرب إلا منه ويكتب حساباته باللغة الاغريقية القديمة حتى لا يفهمها أحد غيره . ونشر الجزء الأول من مؤلفه الضخم «العالم ارادة وفكر» الذى صور فيه فلسفته الخاصة فأبلغه الناشر بعد ١٦ سنة من صدوره أنه اضطر لبيع نصف الكمية كوزق دشت للـف البضائع ! ونجرح مرارة الاحساس بالهوان وهو يرى كما قال « التافهين يتمتعون بالشهرة والتقدير وهو الذى أعلى لواء الحقيقة إلى أعلى مكان رفعه إليها إنسان يعيش وحيدًا منسياً ! » وكره كل شيء فاعتزل الحياة الفكرية وهو فى سن الخامسة والأربعين وانتقل إلى مدينة فرانكفورت وعاش هناك وحيدًا وظل ١٧ عامًا لا ينشر كتابا ولا مقالا . . ولا عمل له لأن « العباقره ليس من الضروري أن يعملوا إذ يكفى وجودهم فى الحياة لكى يستفيد البشر » كما يقول ! . . ثم نشر مقالا واتبعه باصدار الجزء الثانى من مؤلفه : العالم ارادة وفكر . . فإذا بأوروبا تلتفت بلا سابق انذار إلى شوبنهاور . . ويقرأ المثقفون كتبه . . وإذا به يجد لنفسه فجأة وبلا مقدمات آلاف الأصدقاء من دارسى الفلسفة وأساتذتها يحجون إلى بيته . . ويطلبون لقاءه ويكتبون عنه المقالات والدراسات . . وتفاجئته الشهرة والمجد والتقدير الذى انتظره طويلا وهو يقترب من السبعين فيقول ساخرا : بعد أن عشت حياتى

وحيداً منسيا جاءوا فجأة يزفوننى إلى قبرى بالطبول !
ومع ذلك فقد استمتع بمجده الذى جاءه متأخرا وثمل بالتقدير
الذى هبط عليه من السماء وتمنى لو طال العمر ليرشف أكبر جرعة
ممكنة منه .
وما أحدى أن ينال كل إنسان مخلص لعمله وقيمه ومبادئه جائزته من
النجاح والتقدير . . الآن أو غدا . . أو بعد غد . لا يهم لكن المهم . . هو
أن تأتى الجوائز ذات يوم .

مونتاچ يا دنيا !..

منذ عشرين سنة ذهبت إلى استديو مصر في الهرم لألتقى بالفنان سعيد الشيخ المونتير المعروف ، وأكتب تحقيقًا صحفيًا عن دنيا المونتاچ . . لم يكن لي اهتمام بعالم السينما ولم أكن محررًا فنيًا في أى يوم من الأيام ، لكن فكرة خطرت لي فدفعتنى لإجراء هذا التحقيق . فقد أردت أن أعرف أسرار المونتاچ وكيف يقوم المونتير بقص ولصق مشاهد الأفلام لكي يتحقق تتابعها بالإيقاع المطلوب . . وكيف يختار هذا الإيقاع .

وأذكر أنى دخلت عليه في قسم المونتاچ بالاستديو فوجدته يجلس أمام آلة عرض الأفلام الصغيرة «المافيولا» . . وبجواره علب الأفلام . . وتحت قدميه عشرات الأمتار من قصاصاتها وتحدثت إليه وناقشته . . وفهمت منه بعض ما خفى عني ، ونشرت تحقيقى عنه وكتبت في مقدمته عبارة ما زلت أذكرها حتى الآن هي : إن هذا الرجل هو الوحيد في العالم الذى يستطيع أن يحقق أمنية كل إنسان في الأرض ويحذف من حياته مشاهد الألم والفشل والضعف والخذلان والمرارة وكل ما يجعل منه ثم يعيد عرض فيلم حياته على ناظره خاليا منها فيرضى عن نفسه وعن الدنيا ! ومنذ كتبت هذه السطور وأنا أتذكرها من حين لآخر . . وقد أرددها أحيانًا لبعض من

يشكون لى همومهم فأقول لهم أننا للأسف لا نملك قدرة المونتير ولا وسائله لحذف ما لايعجبنا من مشاهد حياتنا الماضية . . لهذا فلا بد لنا من أن نتقبل حياتنا بكل ما فيها من آلام . . ولابد أن نتقبل الماضى بكل ما فيه من أخطاء سواء ما تعلق منها بأخطائنا نحن أو بأخطاء الآخرين فى حقنا . والغريب أنى لم أدخل أى استديو للسينما سوى هذه المرة رغم كثرة ما دعيت لحضور تصوير بعض مشاهد الأفلام التليفزيونية أو المسلسلات المأخوذة عن بعض قصصى . . وما زلت أذكر حتى الآن منظر سعيد الشيخ وتحت أقدامه مئات الشرائط الملقاة على الأرض فى إهمال وقد سألته عنها وقتها فأجابنى بأنه استغنى عنها وأنها ستلقى بعد قليل فى سلة المهملات فلمعت فى ذهنى فكرة وسألته هل أستطيع الاحتفاظ ببعضها؟ فأجابنى باسمًا : خذها كلها إن شئت . . ولم آخذها كلها وإنما أمسكت بالقص وقصصت من كل شريط بضعة مشاهد ، واحتفظت بها فى ملف خاص بمكتبى بالبيت ، وكانت الفكرة التى خطرت لى وقتها هى أن يساعدنى وجودها أمامى على كتابة قصة قصيرة عن مونتير عجوز مُحبط يعيش وحيدًا ويحلم بأن يكلفه منتج بإخراج أول أفلامه لكى ينتقل إلى دنيا الإخراج كما فعل زملاء له من قبل ، وفى انتظار هذه الفرصة كان يصطحب معه كل فترة بعض هذه المشاهد المحذوفة ليستفيد بحرفيتها حين تحىء فرصته الأولى . . فيمضى العمر بغير أن تحىء فرصته ويعتزل العمل ويروح يسلى وحدته يلصق هذه القصصات المختلفة فى شريط واحد طويل فيصنع منها فيلمًا روائيًا عجيبًا يسميه فيلم الحياة ، ثم يجلس كل ليلة أمامه ويعرضه فتتوالى أمامه مشاهد غريبة لا رابط بينها سوى أنها

تصور حياة الناس ومشاكلهم وأفكارهم ونحاورهم وأفراحهم وأحزانهم .
وتطول مدة عرض الفيلم لأكثر من ٥ ساعات ويشاهده المونتير كل
ليلة . . من البداية إلى النهاية . . أو من أى جزء منه فلا يتغير السياق ولا
يختل لأنه فيلم الحياة الذى أخرجه بثلاثين عامًا من عمره .
وكما أمضى هذا المونتير العجوز الوحيد سنوات عمره يحلم بإخراج فيلم
لم يمكنه أحد من إخراجه . . ظلت هذه القصصات فى حوزتى عدة
سنوات تذكرنى برغبتى فى كتابة القصة التى أريد كتابتها وتشغلنى مشاغل
الحياة عنها إلى إن بحثت عنها منذ فترة قصيرة فلم أجدها . . وأسفت
لفقدتها كما أسفت لأنى لم أكتب هذه القصة فى حينها . لكنى لم أنس
الفكرة أبدا . . ولعلى تذكرتها فى مواقف كثيرة فى حياتى وتمنيت لو كانت لى
قدرة المونتير على قصها من شريط العمر والقائها فى سلة مهملات
الذاكرة . وأظن أيضا أنها أمنية كل إنسان . . فما خلت يوما حياة إنسان مما
يؤمله أن يستعيده أو يتذكره . . ولربما كان الأنبياء وحدهم هم الذين يحق
لهم أن يرضوا عما فعلوا وقدموا للبشر أما من سواهم من البشر . . فما
أكثر الآلام . . وما أقل الانجازات ! والحق إنه لو أتيح لكل إنسان أن
يستعرض شريط حياته ويقص منه ما يؤمله أو يوقظ فيه الاحساس بالندم
أو الأسف . . لما طال عرض فيلم حياته كثيرا . ولو فعلت بالنسبة
لشريطى الخاص لقصصت منه مثلا كل مشاهد رحيل الأعزاء فى
حياتى . . وهى كثيرة ومؤلمة ، ولفعلت ذلك بإصرار ولخصصت برعاية
مقصى مشهدى وأنا فى إحدى رحلات الغربة والحياة مقبلة والمستقبل واعد
بالخير ثم دق جرس التليفون وقت الأصيل دقته الطويلة التى تحمل الإشارة

بأنها مكالمة من الأهل البعيدين رفعت السماعة فإذا بشقيقى الأكبر ينعى لى شقيقى الأصغر ابن الثامنة والعشرين وإذا بسماعة التليفون تسقط من يدى . بل ولسنتت أيضا سلاح المقص لأجزّ به بلا رحمة الأيام الثلاثة التى أمضيتها منذ سنوات داخل غرفة العناية المركزة واقفًا على قدمى أقرب شقيقى الأكبر هذا نفسه . . والحياة تنسحب منه ببطء ساحبة معها إلى العدم جزءا من نفسى وروحى وطفولتى وصباى وذكرياتى المشتركة معه .

أما مشاهد الغدر أو الجحود . . فلست أحب إذا ما عرضت فيلمى الخاص على شاشتى الصغيرة أن أراها من جديد لكيلا تتجدد مرارتى من أبطالها لكنى سوف أبقياها لأنها من دروس الحياة التى لا غنى لإنسان عنها ولأنه بالآلما قد تعلمنا الحياة وسأزيد فقط من تسارعها عند عرضها لتمرّ مرور الكرام . . بلا مرارة ولا أحقاد ، إذ لولاها لما عرفت قيمة الوفاء . . ولما كرهت أن أغدر بأحد وإن نالنى منه الكثير . . ولما تذكرت دائما لسعة النار التى أحسستها فى كل موقف منها . . فرجوت ربى ألا يجعلنى ممن يكونون الآخرين بما سبق أن اكنووا هم به . . وأن يجعلنى ممن تزيدهم الآلام فهما للنفس البشرية . . والتماسا لأعذار الآخرين واستعدادا للصفح عنهم .

وعلى العكس منها المشاهد التى أسأت فيها فهم الآخرين . . وقسوت فى أحكامى عليهم . . فهذه لن أزيد من تسارعها . . وإنما سأعرضها عرضا بطيئا لاكتشف أخطائى فيها . . وأحاول تجنبها فى تعاملى مع البشر وسأتعلم منها ألا أحكم على الآخرين بمنطقى وحده . . وأن أضع فى الاعتبار منطقهم وظروفهم ودوافعهم وألا أقع فى الخطأ البشرى القديم

الذى عبر عنه الأديب الفرنسى « اندريه مورا » حين قال إن كل ما يتفق مع ميولنا ورغباتنا يبدو فى نظرنا حكيماً ومعقولاً . أما ما يناقض رغباتنا وأهواءنا فهو دائماً عين الحمق والخطأ .

أما مشاهد الاحساس بالعجز أمام مواقف تمنيت لو كنت قادراً على تغييرها أو اجتيازها وحال عجزى دون ذلك . . فلست أحب أن أستعيدها من جديد لأننى لن أستفيد من استعادتها شيئاً سوى الحسرة على ما ضاع من العمر وما عاد من الممكن استرداده . ومثلها مشاهد نهايات الأشياء . . من البشر . . إلى الشجر . . إلى كل شىء ، لأن البدايات دائماً متوردة واعدة . . والنهايات دائماً ممرورة وكثيرة لهذا أحب أن أتذكر أصدقائى وأعزائى فى بدايات القوة والأحلام وأكره أن أتذكرهم فى نهايات الضعف والانزлам . . وأحب بدايات المشاعر القوية المتدفقة . . وأكره فتورها وخمودها وذبولها فى النهايات . وأحب الربيع وأكره الشتاء . . فى كل شىء . . شتاء العلاقات الإنسانية وشتاء الحب وشتاء الرفاء . .

أما مشاهد السعادة والبهجة فلسوف أطيل عرضها بقدر الامكان وأتمنى لو أستطيع طبع آلاف النسخ منها ولصقها ببعضها لتطيل عرض مساحة السعادة إلى أقصى حد ممكن . . ولن أمل استرجاعها ومشاهدتها من جديد . . فهى تعويض السماء العادل لنا عن كل ما لقينا فى حياتنا وهى المعادل الموضوعى للجانب الآخر من كل حياة ، حيث « لم يجتمع شرق وغرب لقاصد » كما قال أبو تمام . لقد قيل أن الفيلسوف الألمانى « كانت » استعرض ذات مرة فى أخريات أيامه شريط حياته فى مخيلته ثم ابتسم قائلاً : هذا حسن ! . وفسر الأمر لخادمه العجوز « لامب » الذى

يقدر سيدة بأنه قد راجع حياته كلها وانجازاته فأحس بالرضا عن نفسه
وبأنه قد أدى واجبه كاملاً .

وسواء أكان محققاً في ذلك . . أو مغالياً في تقدير نفسه فليتنا نستطيع أن
نقول مثله عن حياتنا جميعاً ذات يوم والمؤكد أننا قد نستطيع ذلك إذا نفذنا
هذه الفكرة الحائلة . . وحذفنا من شريطها كل ما يؤلنا قبل أن نعرضه أمام
مخيلتنا . . وليس مهماً بعد ذلك ألا يطول عرض ما تبقى منه كثيراً .
فلحظة من السعادة الحقيقية قد تعدل العمر كله . والحمد لله من قبل
ومن بعد وفي كل حين .

فات الأوان ..؟ لا لم يَفُتْ !

زارني صديق ذات يوم فوجدني مستغرقاً في قراءة كتاب ضخيم باهتمام شديد وقد بدا على الاجهاد والانشغال فسألني : ماذا تفعل ؟ !
فأجبته ورأسي منحني على الكتاب : كما ترى . . اقرأ . ففوجئت به يسألني : لماذا ؟

فرفعت رأسي مندهشاً ومتسائلاً : ماذا تعني ؟

فقال : أعني لماذا تقرأ بكل الاهتمام وتحبس نفسك في شقتك في هذه الليلة الجميلة من ليالي الصيف . . هل تريد أن تصبح مثقفاً ؟ ان كان هذا ما تريده فلا تتعب نفسك «فالمثقفون» قد قرأوا وتثقفوا من زمان بعيد . . ولا فائدة الآن من هذا العبث . . فات الأوان . . فهي لنخرج ونستمتع بالجلوس على شاطئ النيل في الكازينو القريب !

وللحظات سرت عدوى اليأس من تحقيق الهدف من نفس صديقي هذا إلى نفسي . . وفكرت في كلامه فوجدته لا يخلو من منطق ! فالعمر قد تقدم بنا فعلاً . . فلماذا هذا الشقاء وتخيلت جلستنا في الكازينو القريب على حافة النيل والذي كنا نسميه «بيت العائلة» من ترددنا الدائم عليه حتى كنت اتلقى معظم اتصالاتي التليفونية فيه ويتوافد عليه الأصدقاء بغير ميعاد سابق فإن لم يجدوني فيه أرسلوا إلى الجارسون النوبي الصغير

بقفطانه الموشى بالقصب ليقول لى ضاحكا وكاشفا عن أسنانه شديدة
البياض: أتفضل فيه اجتماع ! فهفت نفسى إلى الاستمتاع بنسيم الليل
ومرح الأصدقاء فيه ، فطويت الكتاب الذى أرهقنى بصعوبته عدة
ساعات وهممت بالنهوض مع صديقى وأنا أتمتم لنفسى : فات الألوان
فعلا للأسف وبدأنا كل شىء متأخرين عن مواعده الطبيعى . لولا أنى
«تذكرت» فجأة أنى فى العشرين من عمري «حين جرى هذا الحوار» ولم
أتخرج سوى من شهرين فقط وما زال العمر أمامى ممتدا لتحقيق
الأهداف . . كما أنى لم ابدأ متأخراً . . فاستثيرت فى فجأة غريزة التحدى
والرفض فصحت فى صديقى الساخر هذا : لا . . لم يفت أوان شىء . .
وحتى لو كان قد فات كما تقول . . فلن اكتفى باليأس . . وسأحاول
تعويض ما فات فدعنى أتم قراءة هذا الكتاب من فضلك .

وعبثا حاول صديقى زحزحتى عن رأى . . فلم ينجح ، واضطر أسفا
للخروج واللحاق بالأصدقاء ، وعدت لكتابى وحوارى الداخلى مع نفسى
يؤكد لى أنى كنت على استعداد للخروج لو كان الدافع له هو الاستمتاع
البرىء بصحبة الأصدقاء ونسيم الليل على شاطئ النيل . . أما الخروج
لأنه لا فائدة من أى شىء وكل شىء فلا وألف لا ، وفتحت الكتاب وكلى
تصميم على دراسته فظللت أصابعه ويصارعنى طوال الليل حتى طويت
آخر صفحة من صفحاته مع ضوء الشمس . . فنهضت مجهدا وفى
صدرى إحساس غريب «بالانتصار» . . وبأنى «أفضل» مما كنت عليه
كإنسان وكبشر قبل أن أقرأ هذا الكتاب !

وبالرغم من عبثية عبارة «فات الألوان» لصديقى هذا الذى كان يتنفس

السخرية من كل شيء في الحياة ، فلقد حفرها الزمن في ذاكرتى منذ ذلك الحين . وتنبهت لتأثيرها السوداوى السلبى في مواقف كثيرة خلال رحلة الحياة . . واكتشفت منذ ذلك اليوم أن اليأس هو الحل الأسهل لأية مشكلة لأنه يعفك من عناء المحاولة ويوفر قطرات العرق ويحمى الجسم والأعصاب من الاجهاد لكنه من الناحية الأخرى يهديك «هدية» أخرى جليلة الشأن هى الفشل . . والنظرة السوداوية للحياة وشيخوخة النفس ولو كنت في عنفوان الشباب كما يكسبك أيضا سمات نفسية وشخصية لا تقل شأنًا هى الحقد على الناجحين . . والشهامة في المتعثرين بدلا من مساعدتهم .

وعرفت أيضا أنه مرض شديد العدوى يمكن أن تنتقل عدواه إليك بسهولة من حامل الفيروس إذا لم تتنبه لذلك وتتحصن ضده بالإيمان بالله والأمل الدائم فيه . . والثقة في النفس . . ثم الإرادة والكفاح لتحقيق ما تسعى إليه من أهداف .

أما أنه الحل السهل . . فهو كذلك كما شرحت لك وأما أنه الحل «القاتل» فلأنه يؤخر الحياة من حولك ويوقف عجلاتها ويزيد عدد العجزة ومشلولى الإرادة ومشوهى النفس وفاشلى الروح فيها . . إذ لماذا يعملون ويكافحون وقد عمل «العاملون» من قبلهم بوقت طويل وحققوا أهدافهم وسدوا عليهم منافذ العمل والنجاح ؟!

ولماذا يبدعون ويبتكرون ويتفوقون وقد استولى «السابقون» على المقاعد وليس هناك في لعبة الكراسى الموسيقية مقعد خال لم يسبق إليه سابق . . والشاعر العربى نفسه يقول «فاز الأوائل بكل فضل» ؟!

لكنه لا شيء يثيرنى مثل هذا المنطق العاجز الذى ينفث فحيح اليأس والاحباط فى سماء الآخرين .

فالحياة فى تغير مستمر . ولا شيء يثبت فى موقعه إلى مالا نهاية والأبواب الموصدة تنفتح ولا يبد أن تنفتح بعد حين لأن هذا هو قانون الحياة، وقدرة العقل البشرى على الاضافة والابتكار لا حدود لها ولا نهاية .

وكل إنسان يأتي إلى الحياة يستطيع أن يكون اضافة إليها . . ويستطيع إذا أراد أن يكون عبثاً ثقيلاً عليها . . والإنسان الشريف المكافح الساعى وراء أهدافه المشروعة بالوسائل المشروعة لا يمكن أن يكون تافه الشأن أبدا مهما كان حجمه أو موقعه لأنه هو نفسه قيمة كبرى فى حد ذاته بغض النظر عن عمله وشأنه ومكانته فهو بسلوكه الأمين مع نفسه ومع الآخرين يعلى من قيمة المثل العليا والقيم الدينية والأخلاقية حتى وإن لم يبع ذلك أحياناً ويسهم فى ترقية الحياة ويحجب على الأقل عن موقعه شخصاً آخر فاسداً يزيد من عناء الحياة بغير أن يدرك ذلك .

وهذا صحيح . . فما فى وسع الإنسان لنفسه وللآخرين وللحياة كثير . . وكثير بشرط أن يطرد خفافيش اليأس والاحباط والمنطق العبثى الذى يرى أن كل شيء باطل الأباطيل ولا قيمة له وفات أوان السعى إليه . . فما فات أوان السعى لأى هدف مشروع من أهداف الحياة ولو كان معلومة جديدة نضيفها إلى معارفنا .

ورسولنا الكريم يقول ما معناه إنه إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة أى «شئلة نبات» فإن استطاع أن يزرعها فليزرعها ! نعم فليزرعها

مع أن الساعة على وشك أن تحصف بكل شيء . . ولن يستفيد أحد من ثمرها لكن من يدري بما يحمله الغيب بعد لحظة ؟ والعالم الإسلامي العظيم البيروني زاره قاضى القضاء وهو يحتضر ففوجئ به يسأله عن مسألة فقهية . . فإذا ما أشفق عليه من أن يشغل نفسه بذلك وهو في لحظاته الأخيرة يجيبه :

لأن أموت وأنا عالم بهذه المسألة أفضل من أن أموت وأنا جاهل بها ، فيجيبه عنها ويناقشه البيروني فيها ، ثم يموت وهو عالم بها بعد دقائق من انصراف زائره .

والأديب الأيرلندي العظيم برناردشو كان يقول إنه يفضل أن يمينا وأمامه دائما هدف يسعى إليه من أن يعيش وقد حقق كل أهدافه وأصبحت وراءه لأن النجاح التام لا يعنى سوى انتهاء مهمة الإنسان في الحياة . . ولا يصبح صالحا بعده إلا للموت تماما كذكر العنكبوت الذى تقتله الأنتى بعد نجاحه في مهمة اختصاصها !

والفقيه الامام ابن حزم الأندلسى كتب ٤٠٠ مؤلف وكان كما يقول المؤرخون مجتهدا ويستروح - ويشهد مجالس الأصدقاء ويسمر مع الظرفاء ويسمع أحيانا الغناء حتى الفجر ثم يقوم للصلاة ويعتكف ليكتب ويؤلف ويعتذر لزيائره عن عدم استقبالهم ثم يخرج من عزلته بعد أيام فيسترضى أصحابه ويعيد سيرته من جديد وهكذا إلى آخر يوم في حياته بلا سأم ولا ملل ولا يأس من «أن الأوائل قد فازوا بكل فضل» ولم يعد هناك مجال للاضافة . . فأصبح هو نفسه من «الأوائل» المجتهدين !
أما الحواجز والعقبات فبقدر العناء تكون جوائز الحياة ويكون استمتاع

أصحابها بها وحتى وإن أدركتهم بعد المشيب . . فلحظة من الرضاء عن النفس قد تمحو كل ذكريات العناء وقد يكون فيها بعض العزاء .

ونحن جميعاً كما «نفكر» في أنفسنا . . وكما نراها جديرة به ففكر في النجاح يقودك تفكيرك إليه . . وفكر دائماً في الفشل يسرع به تفكيرك إليه . . وفكر في الخير ترغب نفسك أن تكون نفساً خيرة وفكر في الشر تزين لك نفسك طريقه . . فإن لم تملك أدواته اكتفيت بالشر السلبى وهو الحقد على الآخرين وكراحتهم والشماتة فيما يتألم من أذى . فضع نفسك حيث تراها جديرة به ، ولو أنصفت لما رضيت لها إلا بأن تكون نفساً خيرة محبة للآخرين كارهة للأذى مكافحة بشرف في سباق الحياة ولو أنصفت لدفعت عنك فشل الروح الذى يصيبها بالشلل وتمسكت بأهدافك المشروعة إلى النهاية . . ولتنبهت إلى «قتلة الأرواح» باليأس والاحباط الذين لا يعاقبهم القانون للأسف كما يعاقب قتلة الأجسام وما كان أبعد نظر جبران خليل جبران حين قال :

وقاتل الجسم مقتول بفعلته

وقاتل الروح لا تدرى به البشر !

فاحترس يا صديقى من «قاتل الروح» هذا الذى يريد أن يجرفك إلى زورقه الغارق لتغرق معه في بحر الظلمات وأرفض الانضمام لحزب «قات الأوان» الذى يغريك بالانضمام إليه . لأنه صدقنى لم يفت بعد أوان أى شىء . . وشكراً !

دعونى وحدى !

دعانى الفنان كرم مطاوع لمشاهدة مسرحيته الجديدة «جاسوس فى قصر السلطان» فلبيت الدعوة سعيدًا . ذهبت مع أسرتى الصغيرة إلى المسرح القومى بالقاهرة قبل رفع الستار بنصف ساعة لأستمتع بجو المسرح الذى أعشقه والذى شغلتنى عنه ظروف الحياة فلم اعد ادخله إلا ثلاث أو أربع مرات فى السنة وغالبًا فى لندن خلال اجازتى الصيفيه !

أسعد أوقاتى فى المسرح هى لحظات الوقوف لدقائق فى مقصف المسرح قبل دخول القاعة وشرب فنجان القهوة استعدادًا لسهرة تشرى الروح والوجدان ، ثم الجلوس فى مقاعد المسرح الأمامية والتطلع للستار الأرجوانى . . وترقب الدقائق التقليدية ايلدانا ببدا العرض . إما حين تظلم الصالة وتنطلق الموسيقى التصويرية فىأتى اتبتل خاشعًا استعدادًا للإستغراق فى العالم السحري الذى سأدخله . فإذا بدأ العرض نسيت ما حولى ومن حولى ولم أتنبه إلا على اسدال الستار على الجزء الأول من المسرحية ، فأعود للمقصف للتدخين وشرب القهوة وأنا هائم فى عالم غريب .

و حين تنتهى المسرحية أفرغ كل انفعالاتى المكبوتة فى تحية فنانيتها وتدمى يداى من التصفيق للجميع بلا استثناء حتى وإن لم يعجبني العرض أو لم

أقنع به لأننى اشفق من ان يتطلع إنسان أدى دوره لعدة ساعات إلى تقدير المشاهدين لجهده البشرى ثم يخلد من يتوقع منهم التقدير وهكذا أحبيهم بلا استثناء ولا أبخل على أحد بتحية لمجرد أنى اختلف مع رؤية كاتب المسرحية أو مخرج العرض ثم اغادر المسرح سعيداً ومشحوناً بانفعالات شتى وذكريات عزيزة . نعم ذكريات عزيزة وأن بدا هذا غريباً على من لا صلة له بعالم المسرح إلا صلة المشاهد . فقد بدأت حياتى الأدبية «مؤلفاً مسرحياً» وأنا فى سن الخامسة عشرة ، فكتبت مسرحية فكاهية من فصل واحد ليقدمها فريق التمثيل بمدرستى الثانوية فى حفل آخر السنة . . وبدأت بروفاتها بالفعل واصطدمت فى سن مبكرة بمشكلة الخروج على النص حين لاحظت أن ممثل الفرقة الأولى وكان صديقاً لى يضيف إلى دوره عبارات من إنشائه فاستشطت غضباً وعاتبتة فى ذلك . . واندزته بأنى سأقاطعه كصديق إذا استمر فى عدم احترام التقاليد المسرحية العريقة . . . ووعدنى بالالتزام ثم مرضت للأسف بحمى روماتيزمية ألزمتنى الفراش لمدة شهر وأضاعت علىّ فرصة متابعة المسرحية بل ودخول امتحان الدور الأول فى تلك السنة ، واكتفيت بتسقط أخبار المسرحية من أصدقائى وزملائى بالمدرسة الذين يعودوننى فى مرضى ، وترقبت بإشفاق بعد عرضها ان اسمع منهم كلمه اعجاب أو تشجيع عنها . . ففوجئت بصمتهم التام وتجاهلهم لها . . وحرصت على أن أستدرجهم بالسؤال عن حفل آخر السنة والمسرحية التى تضمنها فأجابوا بكلمات مقتضبه بانها كانت لا بأس بها ، ثم عرفت سر صمتهم من زميل آخر حين صارحنى بان صديقى الممثل الأول قد «خاننى» وقدم المسرحية «للجمهور» باسمه هو

وكتب اسمه فى اعلانات الحفل كمؤلف للمسرحية ! فكانت أول «خيانه ثقافيه» فى حياتى ! ولعلها كانت خيرًا أرادہ الله لى . . إذ لربما لو كنت قد جربت نشوة الإعجاب بما كتبت وصدقت إنسى مؤلف مسرحى فعلا فواصلت طريق الكتابة المسرحية فلقيت مصير صديقى الكاتب المسرحى الموهوب المرحوم محمود دياب الذى أثرى المسرح العربى بعدد من أجمل المسرحيات وأخلدها ثم مات حسيًا مريضًا مهمومًا بهموم الوطن الكبير والإحساس بالتجاهل وعدم الاعتبار قبل أن يبلغ الخمسين من عمره . . وما أن مات حتى عرف المثقفون له قدره وأدركوا أى فتى أضاعوا بالتجاهل والإنكار والخلاف العقائدى السخيف !

لكننى على أية حال قد عوضت هذا الحرمان المسرحى المبكر بمتابعة الحركة المسرحية باهتمام منذ شبابه الباكر وبقراءة عدد كبير من المسرحيات ويدراسة الدراما الشكسبيرية دراسة لا بأس بها استعدادًا ليوم لا ييجىء اكتب فيه مسرحية طويلة لا يغتصب فيها أحد حقى كمؤلف بل وكتبت الفصل الأول منها فعلا منذ ١٨ عامًا وما زلت «أفكر» فى كتابة فصلها الثانى الآن ولربما تمكنت من كتابة فصلها الثالث إذا وهبنى الله عمر سيدنا نوح الذى عاش ٩٥٠ عامًا !

كما عوضته أيضًا فى شبابه المبكر بمساعدة صديق لى كان يهوى تمثيل وتقدم للالتحاق بفرق التليفزيون المسرحية التى أنشئت فى أوائل ستينيات ، وكان نظام الالتحاق بهما يقتضى أن يؤدى امتحانا فى القدرات التمثيلية أمام لجنة ثلاثية من الفنانين حمدى غيث وعبد الرحيم الزرقانى والسيد بدير ، وكان المتعارف عليه هو أن يختار المتقدم ٣ مشاهد

من ٣ مسرحيات إحداها باللغة العربية الفصحى ويؤديها أمام اللجنة ،
فاختارت له من قراءاتي المسرحية ، مشهد حفار القبور من مسرحية
«هاملت» لشكسبير الذى يمسك فيه هاملت بجمجمه مضحك الملك
ويتأملها متفكرا وهو يسأله : اين الآن لهوك وضحكائك ! واختارت له من
مسرحية شوقي مجنون ليلى مشهدها الختامى المؤثر وقيس يبكى على قبر ليلى
ويقول :

ولقد أقول لمن ييشرنى
بالخلد ما أنا داخل وحدى !
لو أن ليلى فى النعيم معى
أو فى الجحيم تساويا عندى !
إلى أن يدخل فى دور الاحتضار وتختلط عليه الأصوات ويسمع صوت
ليلى يناديه من القبر فيقول :
قيس ، ليلى رنة فى أذنى
رددت قيس وليلى الفلوات
نحن فى الدنيا وإن لم ترنا
لم تمت ليلى ولا المجنون مات !
ثم يسلم الروح وتسدل الستار .
وكان هذا المشهد بالذات يسفح الدمع من عيني كلما شاهدته على
خشبه المسرح ، وقد شاهدت المرحوم فاخر محمد فاخر يؤديه على خشبه
المسرح القومى فى الستينيات فانهمرت الدموع من عيني وأحسست
بالخجل من نفسى وحاولت تخفيفها خفيه بغير أن ألقت نظر جيرانى ،

وتلفت حولى بحذر ففوجئت بمن يجلس بجانبى وكان رجلاً أشيب الشعر
فى الستين من عمره ، يبكى فى صمت فتجرات وتلفت أكثر فوجدت
الدموع فى عيون معظم المتفرجين وخاصة السيدات وحين انفتح الستار على
فاخر وهو يحى الجمهور كانت تحية الجمهور له صراخاً أكثر منه تصفيقاً !
وكان صديقى هذا يجيد تمثيل هذا المشهد بالذات ويبكى فيه بدموع
حقيقية يختلط فيها الواقع بالخيال ، فلقد كانت حياته مأساوية وحرم هو
أيضاً ممن يحب وهو فى سن الشباب ، وحرم قبلها من حنان الأب منذ
طفولته وانتهت أيضاً حياته بطريقة مأساوية فقد كان وحيد أمه فعاد بيته
ذات يوم فى الظهر وأعدت له طعام الغداء فتناوله بشهية ثم دخل فراشه
ليستريح قليلاً فمات بعد قليل فى سن الثامنة والعشرين وتولت أمه أعانها
الله على أقدارها حالة هسترية لم تكن تردد فيها سوى عبارة واحدة هى : أنا
التي طهوت له طعامه ووضعت يدي على المائدة فكيف مات ؟
وكانت مأساة أخرى من مآسى الحياة التي لا تنتهى . . آسف لاثارة
أشجانك بها وادعها الآن جانباً وأعود إلى قصته مع المسرح فأقول أننى
اخترت هذين المشهدين وكان لابد من اختيار مشهد فكاهى باللغة العامية
فاخترت له ولا فخر مشهداً من روايتى اليتيمه التي اغتصبها صديقى
الغادر ونسبها لنفسه ولم اكتف بذلك وإنما توليت تحفيظه المشاهد الثلاثة
بل « وإخراجها » ايضاً له وكانت مشكلتنا هى « البروفات » فقد كان
صوته جهوريا وكلما إنهمك فى البروفات الليلية توالى الطرقات على باب
شقتى من الجيران وتعالى صيحات الاستنكار والاسترحام : يا ناس حرام
عليكم نريد أن ننام ونصحو لأعمالنا ! فلم أجد حلاً للمشكلة سوى

أصطحبته بعد منتصف الليل إلى كوبرى الجامعة القريب من سكنى وقتها
لنجرى البروفات هناك ، وتمت التجربه بنجاح لمدة ساعتين أو ثلاث ثم
فوجئنا بشرطى شاب يسألنا فى انزعاج عن سبب وقوفنا فى الثالثة صباحاً
على الكوبرى ، وعبتا حاولنا أن نقنعه بالسبب الحقيقى ، أو بأن يتنازل
عن رأيه الصارم فى أنه «ممنوع الزعيق» بعد منتصف الليل ! فلم يقتنع أبداً
أو يتنازل فالبرغم من أننا نقف فوق جسر لا يحيط به سكان من كل
الجهات ولا نزعج فيه أحداً بالصوت العالى اللهم إلا أسماك نهر النيل ،
وكانت ليلة ليلاء انتهت فى قسم الشرطة ولم ينقذنا منها سوى مساعد
الشرطة العجوز الذى كان أكثر تحضراً من العسكرى واطلع فى القسم على
هويّتنا وقال لنا بفهم : اعدراه فهو لا يعرف شيئاً عن فن التمثيل . . اما
«نحن» فما أكثر ما شاهدنا يوسف بك وهبى وعلى الكسار والريحانى
ومسارح روض الفرج زمان آه . . كانت أيام . . تفضلاً مع السلامه ! وأذن
لنا بالإنصراف !

ومن عجب أن صديقى خرج من قسم الشرطة يومها فلم ينسج لحظة
واحدة وتوجه بعد ساعتين إلى امتحان التمثيل وأدى مشاهدته الثلاثة بإبداع
ونجح فى الامتحان وعين فى إحدى فرق مسارح التليفزيون على درجة ممثل
حرف ب !

وتقاضى مرتبه عن وظيفته الجديدة لمدة سنة كامله بدون أن يشترك فى
أى مسرحية من مسرحياتها العديدة فى ذلك الوقت .
فلقد كان لا يعرف أحداً من مسئولى المسرح وليست له صلات تيسر له
طريقه ولا يجيد التقرب من المخرجين . . فيئس من تحقيق أحلامه المسرحية

واستقال وعاد لوظيفته الأصلية كمهندس زراعى فى بلدته وانتهت صلته بالمرسح نهائيا . . ولم يبق له من آثارها سوى الاسم المسرحى الاغريقى الذى اطلقته عليه تيمناً بما سوف يكون عليه شأنه فى عالم المسرحيات الكلاسيكية وهو «ترزياس» ! رحمه الله وعوضه عن كل ما حرم منه فى الدنيا فى عالم الخلود .

وبعودة صديقى لبلدته انقطعت صلتى «بالخرفيه المسرحية» أو بكوناليس المسرح واستمرت به كمشاهد وإن لم يفارقنى أبداً الحلم المستحيل بأن أكتب ذات يوم مسرحية لا يدعيها أحد لنفسه وتعيدنى لعالم المسرح . وظللت اتسقط أخبار عالم المسرح الخلفى من بعض أصدقائى الذين واصلوا طريقه وأصبحوا من نجومه فيما بعد ، ومن بين كل هؤلاء اذكر دائماً صديقاً لا أدري ماذا فعلت به الدنيا الآن فقد غاب عني منذ سنوات لكنى أعرف على الأقل أن رقة مشاعره كانت السبب فى تأخير تحقق أحلامه الذهبية فى المسرح ، فلقد كان عضواً فى فريق التمثيل بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وكان مخرج الفرقة طالباً «مزمناً» بالكلية وممثلاً معروفاً فى مسارح الدولة ، وكان يتقدم كل سنة لمسابقة التمثيل المسرحى للجامعات بمسرحية كلاسيكية هى على ما أذكر «لويس الحادى عشر» ويؤدى فيها دور الملك ، وبعد صديقى كل سنة بأنه سيتمنحه دوراً رئيسياً فيها ويظل يرهقه بالبروفات على هذا الدور طول السنة حتى إذا اقترب موعد العرض أمام لجنة التحكيم التى تمنح الفرق المشاركة بعد المشاهدة درجة من ١٠٠ فوجئ صديقى بتنزيله إلى دور حارس يحمل حربة طويلة ويرافق الملك فى لحظاته الأخيرة مع ٣ من الحراس الآخرين وباستدعاء

المخرج لمثل آخر تخرج في الكلية منذ سنوات وقبده المخرج صوريًا في قسم الدراسات العليا بالكلية لكي يحق له الإشتراك مع فرقة الكلية في المسابقة ثم يمنحه الدور الذي تدرب عليه صديقي طوال السنة لأنه أقدر عليه !

ويظل هذا يتكرر كل سنة بلا تغير . . ولا المخرج ينهى دراسته ويتخرج في الكلية ولا صديقي يترقى من دور الجندى شبه الصامت ، إلى أن وقعت الواقعة التي هددت آماله المسرحية فقد عرضت المسرحية في تلك الليلة أمام لجنة التحكيم وكان «ميزانسين المسرحية» أي خطة الحركة على المسرح كما وضعها المخرج تقتضى في مشهد الختام المؤثر أن يموت الملك الذى يؤدى دوره المخرج المخضرم نفسه بعد أن يلقي مونولوجاً مؤثراً ، فيجثو الأمير على ركبتيه أمام فراش الملك باكياً ثم يقول «دعوني وحدي» فينسحب الحراس الأربعة بالتدريج وينظام معين ويخلو المسرح على الأمير الجائى أمام جثمان الملك ويتركز الضوء عليهما فيلقى مونولوجاً حزينا يستغرق 4 دقائق وينهض مودعاً الملك خارجاً ببطء ووجهه للجثمان إلى إن يختفى من المسرح ويسدل الستار .

وفي تلك الليلة المشحونة أدى المخرج دوره باتقان مؤثر فعلاً وبكى الأمير بدموع حقيقية ثم صاح فى ألم «دعوني وحدي» . . فانسحب الحراس واحداً وراء الآخر وبنفس النظام . . ما عدا صديقي فقد تسمروا فى موضعه بالقرب من فراش الملك وقد سالت دموعه وغاب عن الوجود ونسى الحركة المسرحية تماماً . . وأصبح كل همه هو أن يسمع ماذا سيقول الأمير فى رثاء الملك . . وبين لحظة وأخرى يمسح دموعه بظهر يده فى

بإلهه . . وظل هكذا لحظات والأمير صامت ينتظر خروجه والمسلح
«الراحل» يتميز غيظاً في فراشه ويسبّه همساً بأبشع الألفاظ . . ويقول له :
امش يا بن . . . ، حنضيننا يا بن . . . ، ضيعت علينا ٢٠ درجة
حتى الآن يا بن . . . ! إلى أن تنبه صديقي للموقف فجأة فهربول خارجاً
وتأثر جلال المشهد بهربولته المضطربة وضحك أعضاء لجنة التحكيم ! ،
أما ما حدث بعد ذلك في الكواليس فلا داعي للإشارة إليه لأنه على أية
حال كان نهاية طبيعية لأحلام صديقي الفنية .

وغير ذلك كثير . . وكثير . . وما من مره زرت فيها المسرح القومي
العريق إلا وتذكرت الأبحاد المسرحية التي شاهدها على خشبته . . وتذكرت
أيام العز حين كان يعرض علينا في عرض واحد مسرحيتين لاثنتين من
عمالقة الأدب العالمي . . «رجل الأقدار» لبرنارد شو عن نابليون ،
و«البغى الفاضلة» لجان بول سارتر عن التفرقة العنصرية بين البيض
والسود في أمريكا ، أو حين كان يقدم لنا مسرحية طويله في ٥ فصول باسم
سلطان الظلام للأديب العظيم ليوتولستوى ليقول لنا من خلال أحداثها
العنيفة أن جوهر الأديان كلها هو الدعوة للخير والحق والحب وأن التسامح
والرحمة والحب هي الحياة وإن الشر والظلم وايداء الغير هو الظلام .

أو حين كان يقدم لنا مسرحية الكاتب المسرحي الأمريكي ايروين شو
«ثورة الموتى» فنرى فيها ست جنود قتلوا في الحرب ورفضوا النزول إلى
قبورهم رغم محاولات رجال الدين والأهل اقناعهم بقبول المصير ورغم
أوامر الجيش لهم بالامتثال لحكم الطبيعة والنزول في هدوء مما اضطر رجال
الجيش في النهاية إلى «قتلهم» مره أخرى احتراماً للأوامر !

كل ذلك وغيره كثير إلى جانب المسرحيات العربية العظيمة «كسير
الحاكم بأمر الله» لعلى أحمد باكثير و«عودة الشباب» لتوفيق الحكيم و«بداية
ونهاية» و«زقاق المدق» لنجيب محفوظ و«الناس إلى فوق» و«عائلة
الدوغرى» لنعمان عاشور و«الدخان» لميخائيل رومان وغيرها أما قمة
عجبي فكانت دائماً بذلك الرجل العظيم طلعت حرب باشا الذى كان
مهموماً بتحرير الاقتصاد المصرى من سيطرة الأجانب ويسعى لإنشاء أول
بنك مصرى وعربى فى الشرق الأوسط ، وإقامه عشرات الصناعات
والمصانع المصرية الجديدة ، فلم ينس فى غمار كل ذلك أن ينشئ فى بداية
العشرينيات من هذا القرن داراً للتمثيل العربى لترقية وجدان الشعب
وتقديم الأعمال المسرحية الراقية فيها ، ثم يقيم لهذه الدار مسرحاً جميلاً على
غرار دور الأوبرا العالمية ويحرص على أن تكون عمارته وزخارفه عربية أصيلة
ثم يشرف بنفسه على زخرفته . . ويطلب من أمير الشعراء أن يكتب له
عبارة يزين بها المزخرفون سقوف المسرح وقاعاته . . فيفكر شوقى قليلاً ثم
يكتب على الورق كلمتين اثنتين : التمثيل حياة !

ويطرب طلعت حرب للعمارة ويقف على ايدى الخطاطين وهم يكتبونها
على جدران المسرح . . وسقوفه العالية . . وابتحث عنها هذه المرة فى نفس
المسرح الذى بناه طلعت حرب وأنا أشاهد مسرحية «جاسوس فى قصر
السلطان» الرائعة التى كتبها د. محمد عنانى فلا أجدها وأتساءل مشفقاً
هل محو هذه العبارة الموحية التى تختصر معانى كثيرة فى حروف قليلة خلال
عملية تجدييد المسرح وترميمه التى جرت منذ سنوات ، فلا أصل للجواب
محدد واعتزم أن أسأل عنها الفنان كرم مطاوع . . وكلى أمل فى أن تكون

نظارتى هى التى خانتنى فى البحث عنها وأن تكون العبارة الجميلة ما زالت موجودة فى تلافيف الزخارف المنتشرة فى المسرح الذى أعاد إلى ذاكرتى كل هذه الذكريات .

وصدقت يا مساعد الشرطة المتحضر العجوز . . فعلاً كانت أيام !

« شمعدان » .. كل إنسان

هى أرملة بسيطة ، لها ابن وحيد فى سن الصبا ، تعيش من تجارة التحف القديمة المصنوعة من البرونز . . تشتري الشمعدانات القديمة والتماثيل البرونزية من المزادات وبيوت الأثرياء وتعتنى بها وتنظفها وتعرضها للبيع فتكسب دراهم معدودة .

مرض ابنها الوحيد بالتييفود وخيم الموت فوق رأسه فهرعت إلى الطبيب الكبير تستنجد به . لم يكن معها ما تقدمه له من أجر كبير لكى ينتقل معها إلى بيتها المتواضع لكن الطبيب أحس بعرق مأساتها فنهض معها على الفور وفحص ابنها وكتب له الدواء وأمضى معه وقتا طويلا على حساب مرضاه الكثيرين . وأصبح يمر كل يوم على الفتى الصغير ويراقب حالته الصحية ويحمل له بعض الدواء . . حتى حدثت المعجزة ونحطى مرحلة الخطر وبدأ يتماثل للشفاء وعاد نبض الحياة للأرملة التغيصة ثم استرد الفتى قواه تدريجيا وانقطع الطبيب الكبير عن زيارته ولم ينس الفتى وأمه له هذا الصنيع وأحسا بأنهما مدينان له بدين كبير ، وأرادت الأم أن تعبر عن امتنانها له ولم تجد بين يديها ما تستطيع أن تقدمه له فاختارت له من مقتنياتها شمعدانا من البرونز ورثته عن زوجها تاجر التحف وضمت به على البيع طوال السنوات الماضية وأرسلته مع ابنها للطبيب الكبير. وحمل

الفتى الشمعدان ملفوفاً في صحيفة قديمة ودخل على الطبيب مكتبه في حياء وهو يردد عبارات الشكر والامتنان . . . ويبلغه أن أمه لم تجد ما تكافئه به سوى أن تهديه هذه التحفة الفنية النادرة . وأخرجها من لفافتها بعناية ووضعها على مكتبه فإذا بها شمعدان يحمله تماثيلان لامرأتين عاريتين تماماً في غاية الفتنة والإثارة وتؤديان حركة فاضحة مثيرة !

وتأمل الطبيب التحفة باندعاش ثم هرش جانب رأسه في حيرة وقال :
- إنه تحفة فنية فعلاً . . . ولكن . . . لا أعرف ما أقول إنها مثيرة جداً وعارية تماماً . . . ولو احتفظت بها فسوف تدنس مسكني كما أن زوجتي وأطفالي يدخلون مكتبي وتزورنا سيدات محترمات . . . لهذا لا أستطيع قبولها والاحتفاظ بها .

فأجابه الفتى مندهشاً : أهذه نظرتك للفن يا دكتور ؟ قد يقول هذا بعض العامة لكنك طبيب مثقف وتقدر قيمة الفن الرفيع فكيف تقول هذا ؟

إنك لو رفضتها فسوف تكسر قلب أمي وقلبي معها . . . وهي تحفة رائعة ولا يؤسفنا سوى أننا لا نملك شمعدانا آخر مماثلاً له لكي يوضع على الطرف الآخر من البوفيه ويكتمل تأثيرهما الساحر . . . كما إنك للأسف لا تملك شمعدانا مناسباً له . . . هذا هو ما يحزننا فقط أما تلك الفكرة البالية عن الاثارة فليست مقبولة منك يا دكتور !

وأحس الطبيب بالحرج فتقبل الهدية شاكرًا وانصرف الفتى سعيدًا وراح يفكر . . . فقال لنفسه إنه يعز عليه ان يلقي بها في القمامة لقيمتها الفنية الكبيرة . . . ويتعذر عليه أيضاً أن يحتفظ بها فماذا يفعل . . . وتذكر الطبيب

فجأة صديقه المحامى الكبير الذى ترافع عنه مؤخرًا فى قضية ورفض أن يتقاضى أتعابه عنها . . وقال لنفسه : إنه محرج من قبول الأتعاب بسبب الصداقة . . إذن فلتكن هذه التحفة هى هديته بديلاً عن النقود !
وحمل الشمعدان ملفوفاً فى لفافة ووضعها أمامه باهتمام شديد فتفحصها المحامى بانبهار وهو يتعجب من قدرة هؤلاء الفنانين «الشرطيين» على صنع كل هذه الآثار الحية . ثم استرد نفسه ، وقال لصديقه إنه يعتذر عن عدم قبولها . . لأنها «فضيحة» كاملة ستدنس بيته ولأنه محام محترم ومكتبه يرتاده أشخاص محترمون سيظنون بأخلاقياته الظنون إذا شاهدوا هذه الفتنة العارية عنده .

فنظر إليه الطبيب باندهاش مفتعل وهو يقول له :
- أهذه فكرتك عن الفن الرفيع أيها المحامى الكبير ؟ قد يقول هذا بعض العامة . . لكنك أنت المحامى المثقف تقول هذا . . لا أصدق !
وانتهى الأمر بقبول المحامى هدية صديقه الطبيب وبعد انصرافه قال لنفسه هو الآخر إنه يعز عليه أن يلقيها فى الشارع ولا يستطيع فى نفس الوقت أن يحتفظ بها . . وبعد تفكير قصير قرر أن يهديها لصديقه الممثل الكوميدي المعروف وارتاح لهذه الفكرة وهو يقول هذا «الحبيث يحب هذه الأشياء الفاضحة وسوف يسعد بها !» .

وتوجه بها إلى المسرح فى المساء وقدمها لصديقه فى غرفته قبل رفع الستار فارتفع الصخب والضجيج حين فتحتها المحامى ورآها الممثل وزملاؤه وجاء أكثر من زميل من الغرف المجاورة لمشاهدتها . . وانطلقت التعليقات الضاحكة والمأجنة عليها . وانصرف المحامى سعيداً ، وأدى

الممثل دوره فى المسرحية وأسدل الستار وعاد إلى غرفته وجلس بين يدى الماكير ليزيل عن وجهه آثار الماكياج وراح يتأمل التحفة العارية ثم قال للماكير : إنها تحفة رائعة فعلا لا أستطيع أن ألقى بها فى الشارع لقيمتها الفنية لكنى لا أستطيع الاحتفاظ بها فى مسكنى . . فأنا أقيم فى شقة مفروشة وزميلاتى من الممثلات يزرننى فيها . . واستقبل فيها الزملاء والصحفيين . . وسوف يتصور البعض عند رؤيتها إننى إنسان ما جن أو داعر فماذا أفعل بهذه المصيبة ؟

ففكر الماكير فى الأمر قليلا ثم قال له : عندك حق يا سيدى . . إن البعض يتصورون أن الفنانين لا يحترمون الأخلاق السائدة . . وسوف يسىء إليك هذا التمثال . . لكنه من السفه أيضا أن ترمى به فى الشارع لهذا فأنى أنصحك ببيعه . . ان هناك أرملة فقيرة تسكن قريبا من هذا المسرح تتاجر فى التحف القديمة المصنوعة من البرونز وسوف تشتريه منك بثمان مناسب . . فبعه لها ! وتهلل الممثل للفكرة وغادر المسرح إلى بيته .

وبعد يومين عاد الفتى الصغير إلى عيادة الطبيب وطلب مقابلته ثم دخل عليه غرفة مكتبه يحمل فى يده لفافة ووجهه ينطق بالبشر والسعادة ففتحتها وأخرج ما بداخلها ووضعها على مكتب الطبيب وهو يقول : معجزة يا سيدى لقد حقق الله أمنية أُمى لكى تشعر أنها رغم فقرها قد استطاعت أن تعبر لك عن تقديرها لجميلك معنا . . لقد ساقى إليها المصادفة البحتة شمعدانا آخر من نفس النوع ونفس الشكل . . لكى يكتمل الطاقم ويوضع على الطرف الآخر من البوفيه فى مسكنك . . فاشتريه بلا تردد وأرسلته معى لأقدمه لك . . إننا لانسى ما فعلت

معنا . . فلقد انقذت حياتي . . وأنا وحيد أُمى ولو كنا نملك المال لقد منا
لك و

واستمع الطبيب إلى كلام الفتى ذاهلا . . وهو ينظر بدهشة وانزعاج
إلى الشمعدان الفضيحة الذى تخلص منه منذ يومين فقط !
وانتهت القصة الجميلة المعبرة التى كتبها أمير القصة القصيرة المعذب
أنطون تشيكوف الذى عاش بين عامى ١٨٦٠ و ١٩٠٤ ولم يطل عمره
أكثر من ٤٤ سنة أثرى خلالها الحياة والأدب بقدر عظيم من الفهم لآلام
الإنسان وضعفه وتناقضاته . .

ولقد أحببت هذه القصة عميقة المغزى رغم بساطتها كثيرا منذ قرأتها
لأول مرة منذ سنوات طويلة وكثير ما تذكرتها فى مفارقات الحياة المختلفة ،
فقد أتذكرها مثلا حين نتعامل مع أشياء أو أشخاص يعز علينا أن نلقى بها
أو بهم فى الطريق لكنه يتعذر علينا فى نفس الوقت أن نحفظ بها أو بهم
بالقرب منا . . فتواجه نفس الحيرة والخرج والتردد التى واجهها الطبيب
والمحامى والممثل فى قصة تشيكوف الجميلة .

أو حين نرفض شيئا أو عملا لأسباب لها منطقها لدينا ثم يضطربنا
الخرج أو الادعاء أو الخوف من اتهام الآخرين لنا بالتخلف والجمود للدفاع
عن نفس الشيء بنفس المنطق الذى حاول الآخرون اقناعنا به فلم نقتنع !
أو حين نرغب فى التخلص من بعض الأشياء أو الأشخاص ونحتال
على ذلك . . فتضعهم الأقدار فى طريقنا مرة أخرى وتعيدهم إلينا كما أعاد
الفتى الصغير الشمعدان المثير إلى الطبيب الكبير !

كما أتذكرها أيضا حين نهرب أحيانا من بعض المشاعر والعواطف لأننا

لا نقدر على تحمل تبعاتها ولا نستطيع التسليم أو الاعتراف بها أمام «الزوار» والأهل والأصدقاء ، فنحاول التخلص منها ونرحل بعيدا عمن تربط بهم . . فإذا بهم ينتظروننا على غير توقع حيث رست سفائننا في المهجر البعيد الذى لجأنا إليه فرارا منهم !

فكأنهم وكأن كل الأشياء الفاتنة اللاذعة التى لا نستطيع الاعتراف بجهاها وفتنتها وروعها احتراماً لاعتبارات كثيرة «شمعدان تشيكوف» .

يعجبنا فى السر لكننا نكره فى العلن ونهديه لغيرنا فيعود إلينا من طريق آخر !

أما أكثر ما يذكرنى بهذه القصة المعبرة فهو اختبارات الحياة العديدة التى تكشف للبعض عن حقيقة قد لا يتصورونها فى أنفسهم . . وهى أنهم متدينون أو محافظون فى اعماقهم وإن لم يعرفوا ذلك . . أو تظاهروا بعكسه والخلاف الوحيد هو أن درجة التدين والمحافظة قد تختلف من إنسان لإنسان !

وفى حياة كل إنسان مواقف ولحظات تعامل فيها مع هذا «الشمعدان» وفى حياتك أنت أيضا بعض هذه اللحظات والمواقف . . فهل تبوح بها ؟

عفوا .. لقد نسيت !

في فيلم أمريكي قديم كان الممثل المطرب الأمريكي فرانك سيناترا صاحب الأغنية الرومانسية الشهيرة «غريب في الليل» يؤدي دور شخص مدمن للمراهنة على كل شيء . . من نتائج المباريات الرياضية إلى أي شيء يجد من يراهنه عليه من معارفه وأصدقائه . . كأول رجل يدخل من هذا الباب ، هل سيكون طويلا أم قصيرا أبيض أم أسود الخ ؟ وكان يتفاخر بقدرته على تذكر نتائج مباريات الكرة والبيسبول خلال ١٠ سنوات ماضية، وخلال انهياكه في الحديث عن قوة ذاكرته هذه فاجأة صديقه الذي كان من أكبر ضحاياه بأن وضع يده تحت ذقنه ورفع له لأعلى ثم قال له : مائة دولار على لون الكرافت التي ترتديها أنت . . ما هو لونها ؟

وخسر سيناترا الرهان لأنه عجز عن تذكر لون الكرافت التي يرتديها في نفس اللحظة التي كان يسرد فيها بدقة نتائج مباريات جرت منذ سنوات ؟ والعالم الألماني اليهودي البرت أينشتاين الذي تبرع بمخه بعد وفاته لمراكز البحث العلمي لتقوم بتشريحه ومعرفة تكوينه وسر عبقريته توصل إلى نظرية علمية معقدة كان عدد من يستطيعون فهمها في العالم كله في بعض الأوقات لا يزيد على عشرات ، وكان يستطيع أن يجري حسابات رياضية

معقدة اعتمادًا على ذهنه المتوهج وذاكرته العلمية المذهلة ، ومع ذلك فكثيرا ماشكا من ضياع قلم كان بيده منذ لحظات وعجز عن تذكر أين تركه ، وفي بعض الأحيان كان يبحث عنه ويستنجد بزوجه فتمد يدها إلى مكتبه أمامه وتقدمه له !

أما نابليون فقد كان دقيق الملاحظة وحاد الذاكرة يتذكر أسماء قواده وضباطه على كثرتهم ويناديهم جميعا بأسمائهم الأولى ، ويقول إنه ما من قائد منهم إلا ويعتقد في نفسه إنه أحق بالعرش مني ! وفي منفاه بجزيرة سانت هيلانة أملى على ثلاثة من رفاقه مذكراته فذهلوا للتفاصيل الدقيقة التي يتذكرها عن كل مراحل حياته ومعاركه والمؤامرات السياسية التي واجهها ، ومع ذلك فلقد كان ينسى أقرب تفاصيل حياته اليومية ، وقال أحد مرافقيه مداعبا أنه كان يضع يده في صدره ليرى فيه «لحيته» حين يريد خروجا من أن ينسى مكانها !

والعرب - كما تقول كتب التاريخ والأدب - كانت ذاكرتهم هي أقوى شيء في روحهم إذ لم يكن لديهم شيء مدون ومحفوظ قبل الإسلام وكل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي - ما عدا المعلقات السبع - قد وصل إلينا عبر الذاكرة والرواة والحفاظ ، وفي هذا المجال تروى الأمثلة العجيبة على قوة حفظهم ، ومنها ما روت كتب الأدب من أنه كان للوزير الأديب صاحب ابن عباد مجلس للشعر لا يسمح بالانضمام إليه إلا لمن حفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ورغم هذا الشرط القاسي فلقد كان يجلس إلى مائدته في الأعياد والمناسبات ألف رجل ينطبق عليهم هذا الشرط وأصدق الآن أن كلا منهم كان يحفظ عشرين ألف بيت من الشعر . لكنني أجزم بأن أحدا

منهم لم يكن يتذكر ماذا تناول من طعام في غذائه قبل ذلك بثلاثة أيام ! إذن فما هي هذه الذاكرة التي تتسع لعمليات رياضية معقدة أو آلاف الأبيات من الشعر . . ثم تضيق فتعجز عن تذكر موعد هام . . أو معلومة قرأناها منذ أيام ! إن أبسط تعريف للذاكرة هو إنها جهاز في المخ يسجل الصور والأفكار والمعلومات والأشياء المختلفة كالرائحة والأصوات ويخزنها فيه إلى أن يتم استرجاعها منه عند الحاجة . . وأحيانا بلا إرادة من الإنسان ، وعملية التذكر من أعقد أشكال النشاط العقلي ، وعملية التسجيل أيضا تتم تلقائيا ، فتبدأ الذاكرة عملها الجاد في حياة الإنسان من سن الثامنة وتستمر تتشكل وتنمو حتى سن البلوغ حين ينظم عمل المخ . . ثم يظل حماس الذاكرة مطردا ومشتتلا حتى سن الثلاثين وبعدها تبدأ في الانحلال تدريجيا . . وهو ما نسميه نحن بكثرة النسيان وسرعته لكن يعوض هذا النقص ان الإنسان يكون قد اكتسب في هذه السن نضجا وخبرات قيمة في التنظيم ووضوح الفكرة والقدرة على الترتيب مما يخفف عنه أثر تراجع ذاكرته وبداية انحلالها . وبعض المتخصصين في علم تنمية القدرات «يغيظوننا» بالقول إنه ليست هناك ذاكرة قوية وذاكرة ضعيفة ، وإنما هناك ذاكرة تم تدريبها على التذكر والحفظ والتسجيل ، وذاكرة أهمل صاحبها كسلا أو خمولا تدريبها فاستراح إلى ادمان النسيان ! وفي هذا القول شيء كثير من الحقيقة لأن الذاكرة كالعضلة من عضلات الإنسان إذا استخدمتها كثيرا نمت وقويت وإذا أهملتها ذوت وضعفت ، وعملية تخزين وتسجيل المعلومات تتم في المخ وعملية استرجاعها تتم عن طريقه أيضا ، لهذا فلا بد كما يقولون من ممارسة أكبر قدر ممكن من التنظيم

والانضباط على العقل لكيلا يسترخى ويدمن الكسل والاسترخاء ، وأول ما ينصحوننا به لكي تكون لنا ذاكرة قوية هو أن «تقرر» ان نتذكر لأن ارادة التذكر هي أكبر العوامل المساعدة عليه . وأن يكون للمخ هدف لأن العقل الذي لا هدف له لا يمكن أن تكون له ذاكرة قوية ، وبقدر أهمية الهدف وكمية الجهد الذي نبذله للوصول إليه يكون نجاحنا في التذكر . . فالتالب لا ينسى مثلاً موعد الإمتحان لأنه هام وجوهري في حياته . . وقد ينسى موعداً مع صديق له لأنه ليس جوهرياً ولا يؤثر على مجرى حياته ، وطالب الوظيفة لا ينسى أبداً موعد الاختبار الذي سينتقدم إليه لأنه شديد الاهتمام به . . والمحب لا ينسى موعد خطيبته التي يحبها مهما كان ذهنه مشغولاً بالشواغل لأنها شديدة الأهمية في حياته ، وكل إنسان يستطيع أن يتذكر ما يريد أن يتذكره بقدر الحماس الذي يحمله للموضوع المطلوب عدم نسيانه .

والباب الملكي للذاكرة السليمة بعد أن «تقرر» أن تتذكر هو أن نفهم جيداً الشيء الذي سوف نتذكره ، إذ يندر أن ينسى الإنسان ما فهمه واستوعبه جيداً في حين قد ينسى ما حفظه بلا فهم بعد فترة قصيرة من الزمن . ثم ان تستمر في محاولاتك لانعاش ذاكرتك وعدم تركها لنفسها لتشيخ وتهرم وتستقيم إلى الضعف والوهن ، والطريق لانعاشها يبدأ بشحد «انتباه» الشخص للأمر الذي يعنيه ، وحشد أكبر قدر من التركيز الذهني عليه ، وهناك تدريبات عديدة يقدمها الخبراء لمن يريد أن يتعلم التركيز ، منها تدريب بسيط هو أن تغمض عينيك وترغم نفسك لمدة ٥ دقائق على التفكير بتركيز شديد في موضوع معين وتطرد خلالها من ذهنك كل الأفكار

البعيدة عنه ، ثم تكرر هذه العملية مرة كل عدة أيام لمدة ٣ شهور ترتفع بعدها درجة تركيزك كثيرا . ومنها أيضا تمرين فاترينة المحل التجارى وهو أن تنظر بتركيز إلى فاترينة أى محل لمدة ٥ دقائق وحين تعود للبيت وتدون فى ورقة ما تتذكره من محتوياتها ، ثم تقارن فى اليوم التالى بين ما رأيت وما تذكرت وتكرر هذه العملية عدة مرات لمدة شهور فتكتسب قدرات جديدة على الملاحظة والتركيز ، وهذا التدريب بالذات تأخذ به معظم الأجهزة البوليسية وأجهزة المخابرات فى العالم فى تدريب عناصرها على دقة الملاحظة وحفظ الأشكال والوجوه ، ومنها أيضا تمرين العد التنازلى بالحساب العقلى بأن تبدأ بالعد فى أول يوم تنازليا هكذا : ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٨ ، وفى اليوم التالى تقوم بالعد على الرقم الثانى هكذا : ١٠٠ ، ٩٨ ، ٩٦ وفى اليوم التالى تقوم بالعد على الرقم الثالث : ١٠٠ ، ٩٧ ، ٩٤ ، ثم على الرقم الرابع والخامس والسادس الخ . . فتتغش ذاكرتك وتجدد شبابها وتنشط خلايا التفكير والتذكر فى عقلك .

ولأن الذاكرة تعتمد على المخ فإن المخ المجهد لا يكون فى أحسن الحالات المناسبة لا للاستيعاب ولا للتذكر . ومن معوقات التذكر أيضا الانفعال والخوف والقلق والعصبية فالذاكرة نوع من التفكير ومن الأفضل أن توفر لها الجو المناسب وأن تساعدنا بعوامل مساعدة على أداء مهمتها كتكرار الشيء الذى لا نريد نسيانه بصوت مسموع أو صامت . . ويكتأبته إلى جانب ترديده وبتسمية الاهتمام لدينا بما نفعل لكيلا ننساه ، ويربط الأشياء التى نريد تذكرها بعضها ببعض مما يسهل علينا استرجاعها حين نريد ذلك عن طريق تداعى المعانى عملا بقاعدة «الشيء بالشيء

يذكر « ، ولا بأس بعد ذلك من تغذية المخ بالأغذية التى ينصحنا بها الأطباء لتغذيته وهى الأطعمة التى تحتوى على الكالسيوم والفوسفور والمغنسيوم كاللبن والجبن والسّمك والبيض خاصة صفاره وخبز الدقيق الأسمر والملح الخام والخضروات والفواكة الطازجة و«جنين القمح» واللوز والجوز والبندق - لمن استطاع إليها سبيلاً ! - إلى جانب فيتامين «د» الذى يصفه الطبيب لمن يحتاج إليه ومع تجنب الأطعمة التى ترهق المخ كالأفراط فى الدهنيات والأفراط فى تناول السكر ، وتجنب المهدئات . . الخ .

ولأنى أعانى من ذاكرتى منذ زمن طويل فلقد تعرفت على تدريبات الذاكرة هذه منذ وقت مبكر ، وكانت بداية اهتمامى بها أنى قرأت عن أدينا الكبير الأستاذ نجيب محفوظ أنه يبدأ يومه بحفظ وترديد بضعة أبيات من الشعر لكى ينشط بها ذاكرته ويدفع عنها «الوخم» ، فأصبحت منذ سنوات أردد واحفظ من حين إلى آخر بضع أبيات من الذكر الحكيم وبضعة أبيات من الشعر القديم وبضعة مفردات جديدة من الانجليزية والفرنسية وأمارس تدريبات الملاحظة التى أحبها لميل طبيعى فى تأمل الوجوه والأشياء . ولم أعرف أهميتها إلا حين قرأت عبارة الروائى الفرنسى اميل زولا ناصحا أصدقاءه الأدباء : علينا أن نصعد إلى نجوم السماء بسلم الملاحظة الدقيقة !

والحمد لله كثيرا على ما حققته معى تدريبات الذاكرة من نجاح باهر خفف عنى الكثير مما كنت أعانيه بسببها ، صحيح أننى لم احفظ ولن احفظ أبدا كما قيل عن الشاعر العباسى أبو نواس «شعر ٦٠ امرأة فما بالك بأشعار الرجال» ولا حفظت وهيئات أن احفظ «الف ألف حديث

شريف « كما قيل أن الأمام أحمد ابن حنبل قد حفظها ثم «تنخلها» أى
فرزها واستصفى منها أكثر من ٤٠ ألف حديث ضمنها كتابه المسند ،
لكنى على الناحية الأخرى لم أعد والحمد لله أزعج اسرتى بدق الجرس عليها
فى الفجر لأنى قد نسيت مفاتيحى فى درج مكتبى بالأهرام سوى ثلاث
أو أربع مرات على الأكثر فى السنة ، كما لم أعد استيقظ سوى مرتين على
الأكثر كل سنة فى السادسة أو السابعة صباحاً على صوت الجرس فى شقتى
فافتح الباب لأجد جارا فاضلا من جيرانى يشير لى مبتسماً إلى مفاتيحى
التي تركتها سهواً فى الباب من الخارج !

كما توقفت نهائياً والشكر لله عن اللجوء إلى المبيت مضطراً من حين لآخر
فى فنادق وسط المدينة إلى أن أقوم بتغيير كالون باب الشقة وصنع مفاتيح
جديدة ، وذلك لأنى نسيت مفاتيحى فى مكان ما لا أعرفه كما كنت أفعل
كثيراً وأنا اعزب أعيش وحيداً فى مسكنى . . والفضل بعد الله فى هذا
«النجاح الباهر» لتدريبات الذاكرة المفيدة . . ثم «للزواج» الذى
شغل المسكن الخالى بمن استطيع أن «أدق» عليه الباب حين أنسى
مفاتيحى !

وهذا كله انجاز عظيم أرجو ألا تنكره على ، خاصة إذا قارنتنى
بصديقى الراحل المهندس عبد الحميد رحمة الله عليه وقد كان يسخر من
تدريبات الذاكرة التى احثه عليها ، ثم حدث أن عاد صديقنا المشترك
الاذاعى القديم الأستاذ يوسف الخطاب من عمل بالخارج غاب فيه عامين
والتقينا ودعانا لزيارته فى بيته بحلولان فى مساء اليوم التالى ، وفى اليوم
المحدد اتصل بى صديقى عبد الحميد يسألنى عن برنامجى هذه الليلة ،

فأجبتة متعجبًا : هل نسيت ؟ ألسنا على موعد لزيارة «يوسف» في بيته كما اتفقنا أمس فاستدرك سريعًا وطلب مهلة للاتصال به أولاً وعاد يتصل بى بعد قليل ليؤكد لى أن «يوسف» فى انتظارنا ، والتقينا فى وسط المدينة فوجدته يتجه إلى الدقى بدلا من حلوان ، وسألته هل غير صديقنا مسكنه فأجابنى بالإيجاب ا ، ودخلنا إلى عمارة حديثة وصعدنا إلى الدور الرابع فيها ثم ضغط على جرس باب احدى الشقق وانفتح الباب فإذا بى أجدنى أمام الأستاذ يوسف عوف . . وليس يوسف الخطاب ا ولم أكن فى ذلك الوقت من ١٥ سنة أعرف الكاتب الفنان يوسف عوف ولا يعرفنى إلا بالاسم وليست بيننا أى علاقة ويبدو أنه فوجئ بصديقنا المشترك يتصل به ويبلغه «برغبتي» فى زيارته فلم يملك أدبا ومجامله إلا الترحيب ا واكتشفت فيما بعد أن صديقى عبد الحميد قد نسى تمامًا دعوة يوسف الخطاب لنا مع أنه لم تمض عليها سوى ساعات ولم يخطر بباله حين ذكرته بزيارتنا ليوسف إلا صديقه الآخر ورب غلطة ذاكرة خير من ألف ميعاد فلقد كانت بداية لصداقة اعتز بها مع يوسف عوف منذ ١٥ عاما لكنى لا اعتز أبدا - وأظنه هو أيضا - كذلك بتلك اللحظة التى فتح فيها الباب فوجد «ضيفا» مذهولا ينظر إليه بدهشة . . ثم ينظر إلى صديقه الذاهل فى لوم صامت ثم يدرك الموقف سريعًا ويسترجع فى لمح البصر حوادث نسيانه الماثلة فيتلوى من الضحك المكتوم ويحاول أن يتغلب على الحرج ويبحث دون جدوى عن صوته ليرد على المضيف تحيته فلا يجد صوته المحشرج بالضحك والتعجب ، ثم يدخل الضيفان يتهايلان من الضحك بعد أن تنبه صديقى عبد الحميد لخطئه ألف رحمة على صديقى الطيب وأيامه الجميلة الموشاة

بوشى الحب الأخوى الصادق . . وألف لعنة على تدريبات الذاكرة لو كان
قد اقتنع بها وأفلحت معه فحرمنى من صداقة يوسف عوف أو أى صديق
جديد .

. . فى النهاية أريد أن أذكر لك شيئًا هامًا عن تدريبات الذاكرة . .
أرجو الا تغفله هو . . هو . . عفوًا لقد نسيت . . وتعبت أيضًا!

قصيرة .. ولكن حافلة !

هل تفضل أن تعيش حياة طويلة وإن كانت تعيشة أو باهتة بلا أضواء ولا أمجاد أو فاترة بلا حرارة ولا تميز في أى شىء ؟ أم أن تعيش حياة قصيرة ولكن حافلة بالأحداث . . والإثارة والترقب والانفعال . . والتميز في أى مجال من مجالات الحياة .

كثيرون سوف يجيبون على هذا السؤال بأنهم يفضلون الحياة القصيرة الحافلة . . وآخرون سوف يقولون لك أننا لا نختار أعمارنا طالت أم قصرت لكننا نتمنى لو كانت حياتنا مثيرة لا تعرف الرتابة ولا الجمود . ومتألفة بالنجاح والانفراد والطموح . ونحن فعلا لا نختار أعمارنا . . لكننا قد نختار في بعض الأحيان حياتنا . . وفي أحيان أخرى نختارنا هذه الحياة لنفسها ونستسلم لها نحن بلا متعة ولا إرادة .

وواحد من الذين اختاروا حياتهم . . هو الرسام الإيطالى موديليانى الذى تنتشر لوحاته الآن في المتاحف العالمية فلقد قال ذات يوم : أتمنى أن أعيش حياة قصيرة . . ولكن حافلة !

وعاش بالفعل حياة قصيرة . . لكنها لم تكن حافلة بالنجاح ولا بالشهرة ولا بالسعادة ، أما الإثارة فلم تشهد لها حياته وإنما شهد لها موته ! فلقد هجر بلاده إيطاليا وهو في الثانية والعشرين من عمره إلى باريس

وأقام في غرفة ضيقة بإحدى حاراتها وأمضى أيامه ينحت التماثيل . .
ويرسم اللوحات ويسرف في الخمر والمخدرات ، فلم يمض وقت طويل
حتى أصيب بالسل وواصل رسم لوحاته وهو ينفث الدم من فمه . وعرف
الحب وأحب فتاة فرنسية اسمها جين هيبوترن وعاش معها بلا زواج
وأنجب منها طفلة . . وبعد شقاء طويل عرف بعض النجاح وبدأت
لوحاته تدر عليه بعض الفرنكات ، لكن وطأة المرض ازدادت عليه فجتمع
له أصدقاؤه بعض المال وأرسلوه إلى جنوب فرنسا للاستشفاء في جو الجنوب
الدافئ . . فلم تتحسن صحته ولم يتوقف نزيف صدره ، وعاد من هناك
أسوأ حالا . . فأدخلوه المستشفى وهو في غيبوبة . . ومات بعد قليل وهو
في سن الشباب غريباً في بلاد غريبة ، وعاد أصدقاؤه بالنسب الحزين إلى
صديقه . . فهرعت إلى المستشفى وارتمت على صدره وغمرت وجهه
بالقبلات وانتزعوها من فوق جثمانه انتزاعاً وأعادوها إلى مسكنها . .
فصعدت درج السلم عدواً إلى السطح . . ثم ألقت بنفسها من فوقه
وماتت وفي أحشائها جنين آخر عمره سبعة شهور . . وفارق الحبيبان
الدينا في يوم واحد . . كأنهما روميو وجوليت في مسرحية شكسبير
الشهيرة .

ومثل موديليانى . . عاش الموسيقار النمساوى شوبرت حياة قصيرة
أيضاً وإن كان لم يتمن لنفسه هذه الحياة الخاطفة ، فلقد ولد في فيينا وبدأ
يتلقى دروس الموسيقى وهو في الخامسة من عمره . . وأعلنت عبقريته عن
نفسها وهو في الثالثة عشرة فبدأ يكتب أعماله الموسيقية وكتب عشر
سيمفونيات أشهرها السيمفونية الناقصة وعشرات الأغاني والمقطوعات

المتوسطة والقصيرة . . . وحين بدأ يجنى أولى ثمار نجاحه وعبقريته . . . فاجأة الموت وهو في الواحدة والثلاثين من عمره ، وانطوت صفحة حياة كان عناؤها أكثر من سعادتها وبهجتها .

وربما يكون الاسكندر الأكبر وحده . . . هو من يستطيع أن يقول أنه عاش حياة قصيرة ولكن حافلة بما لا تتسع له حياة كثيرين مهما طالت . فلقد بدأ رحلته للمجد وهو في سن الصبا . . . وروى بعض المؤرخين أنه وهو في سن المراهقة ، عرض البعض على أبيه فيليب المقدوني حصاناً كريماً ليشتريه بمبلغ كبير ، واختبره الأب ولم يستطع أحد من قواده أن يركبه ، فقد كان الحصان يقف على رجليه الخلفيتين ويتوثب فرعاً كلما حاول أحد ركوبه فيئس منه فيليب وأمر باستبعاده ، وفوجئ بالاسكندر يطلب منه السماح له بترويض هذا الحصان الجامح ، ونهره الأب لتوقعه على الضباط الكبار الأكبر منه سنًا لكن الاسكندر أصرّ فسأله ساخرًا : أنظرن أنك ستنجح فيما فشل فيه هؤلاء القواد الكبار ؟ فأجابه بهدوء : نعم ، ووافق الأب ضاحكاً . . . واقترب الاسكندر من الحصان وسط ضحكات الأب والضباط فأمسك بعنان الحصان وأداره برفق بحيث يواجه الشمس ثم ربت عليه بحنان وامتطاه فإذا بالحصان يسلم له قياده ويتمشى به الاسكندر جيئة وذهاباً وسط ذهول الحاضرين ، وسأله فيليب عما صنع بالحصان فأجاب ببساطة : كانت الشمس خلف الحصان . . . فكان يفزع من ظله الذي يرتسم على الأرض أمامه . . . فأدركته بحيث يقع ظله خلفه . . . فهدأ وأسلم لى قياده ! وبهر الأب بعقريته ابنه وقوة ارادته فقال له معجبا : ان أرض مقدونيا لأضيق من أن تتسع لك .

وصدقت نبوءته فلم تتسع له بالفعل وخرج منها فأخضع المقاطعات المجاورة وهو في بداية سن الشباب ثم قاد جيشه إلى الشرق ففتح الممالك والبلاد وهزم الفرس وامتدت فتوحاته إلى الهند وصاحبه هذا الحصان في كل فتوحاته حتى نفق في الهند .

ثم أصيب الاسكندر بالمalaria . . وتناوبته الغيبوبة وفي إحدى نوبات صحوه سألوه أن يختار من يخلفه في قيادة الجيش فرفض قائلاً: يخلفني من الرجال خيرهم ! ثم مات في الثالثة والثلاثين من عمره القصير الحافل بالانتصارات والأعجاد . . والبطولات . .

وبعده بسنوات عديدة قرأ قيصر في روما وهو في الثالثة والثلاثين من عمره سيرة الاسكندر فانفجر باكياً . . وسألوه عن سبب بكائه فأجاب بأن الاسكندر كان في مثل عمره حين أتم كل فتوحاته وأعماله الباهرة ومات أما هو فإنه لم يبدأ بعد أى عمل يخلّد اسمه في التاريخ !

ومع أن هناك عباقرة وعظماء وعلماء وفلاسفة وشعراء مجيدين طال بهم العمر أو عاشوا حياة طبيعية في أمدّها ، فإن هناك أيضًا عباقرة وفنانين ومبدعين كثيرين «أشعلوا شمعة حياتهم من طرفيها» على حد تعبير أحد النقاد الانجليز فذابت الشمعة وذوت سريعًا .

وفي تاريخ الأدب العربي قصة طريفة تفسر هذا التعبير بشكل أفضل ، فلقد كان الشاعر العربي أبو تمام حاضراً البديهة ويحفظ عشرات الألوف من أبيات الشعر ، وقد مديح يوماً أحمد بن المعتصم في حضور الفيلسوف الكندي بقصيدة طويلة إلى أن وصل إلى قوله فيها :
إقدام عمرو في سباحه حاتم

في حلم أحنف في ذكاء إياس
فقاطعه الكندي قائلا : الأمير فوق ما وصفت وما زدت أن شبهته
ببعض أجلاف العرب ، فصمت أبو تمام قليلا ثم قال :
لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس !

وحين أخذوا القصيدة المكتوبة منه لم يجدوا فيها هذين البيتين فتعجبوا
لسرعة بديهته وحدة ذكائه وقال الفيلسوف للخليفة : مهما يطلب فأعطه
فإن فكره يأكل جسمه . . وهو لا يعيش كثيرا ! فولاه أحمد بن المعتصم يريد
البصرة . . ولم يطل استمتاعه بالحياة فعلا أكثر من عامين ومات في
الأربعين من عمره !

وتحققت نبوءة الكندي . . أو توقعه له .
وكثيرون هم من أكل « فكرهم أجسامهم » . . فلم يطل مقامهم على
الأرض . . ولم تتسع حياتهم لكل ما أرادوا أو حلموا به .
فالموسيقار العبقري شوبان مات هو أيضا في الأربعين من عمره وهو
يبصق الدم والسل ينهش صدره كالرسام الإيطالي مودلياني . . ومثله أيضا
مات في باريس غريتا عن بلده بولندا .
والموسيقار النمساوي يوهان شتراوس أعظم عازف ومؤلف لموسيقى
الفالس مات في الأربعين من عمره بعد أن كتب أكثر من ١٥٠ مقطوعة
من موسيقى الفالس وحدها وقبل أن يستمتع بها حققه من شهرة .

والرسام الهولندى الشهير فان جوخ الذى تباع لوحاته الآن بملايين الدولارات مات قبل أن ينتجح فى بيع لوحة واحدة من أعماله وهو فى السابعة والثلاثين من عمره ورحل عن الدنيا بعد حياة قصيرة حافلة بالآلام والمعاناة حتى لقد اعترته فى أواخرها نوبات قاسية من الجنون ! ثم كم سنة عاشها أمير القصة القصيرة أنطون تشيكوف الذى أثرى الحياة والأدب العالمى بكل هذا الفهم للإنسان وآلامه وعذاباته ؟ ٤٤ عاماً فقط لا غير ثم مات مريضاً بالسل قبل أن « يتم عمله » ويهدى للإنسانية المزيد من نفثات عبقريته .

أما الكاتب الروسى الشهير جورجول رائد الواقعية فى الأدب الروسى ومؤلف عدد كبير من المسرحيات أشهرها عندنا « المفتش العام » فإنه عاش أقل من تشيكوف ومات وعمره ٤٣ عاماً فقط . . ولو عاش لتضاعف أثره فى الأدب العالمى . وكم طال عمر الامام محمد عبده الذى اتسع لكل ما اتسع له من طلب للعلم وجهاد ونفى وعودة لمصر ونشر للعلم ودعوة للإصلاح الدينى وتفسير وإفتاء الخ ؟ لقد عاش أقل من ٥٧ سنة ومات بالسرطان فى الاسكندرية ودفن بالقاهرة عليه رحمة الله ورضوانه . . أما ابن المقفع الذى ما زال أثره فى الأدب العربى باقياً لأن فقد قتل وعمره ٣٥ عاماً فقط لا غير !

وكم سنة عاشها أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية بمصر وسوريا من مولده إلى مجيئه لمصر وألياً من قبل العباسيين إلى استقلاله بحكم مصر إلى ضمه لسوريا إلى حكمه ٤٩٩ عاماً فقط . بل وكم سنة عاشها نابليون بونابرت منذ ميلاده إلى صعوده من ضابط

كورسيكى صغير . . إلى قنصل فرنسا . . إلى امبراطورها إلى سيد أوروبا الذى يتلاعب بعروشها وتيجانها ويوزعها على إخوته وأقاربه . . إلى اجتماع أوروبا لمحاربته إلى سقوطه فى الأسر . . والنفسى حتى مات بالسرطان فى جزيرة «سانت هيلانة» حسيراً ؟ إن هذه الرحلة الحافلة التى شهدت كل هذه الأجداد والأهوال لم تستغرق أكثر من ٥٢ عاماً فقط لا غير ولا عجب فى ذلك فحساب الأيام والسنين فى حياة العظماء يختلف فيما يبدو عنه فى حياة البسطاء من أمثالنا .

أما الشعراء والأدباء والكتّاب الذين «أكل فكرهم أجسامهم» وماتوا فى سن الشباب أو قبل الكهولة فلا حصر لهم ولا عد من أبى القاسم الشاذلى حتى أمل دنقل وعليهم جميعاً تنطبق كلمة الفيلسوف الفرنسى هرفيه : إن الإنسان يموت دائماً قبل أن يتم عمله وإن هذا هو أكثر أحزان الحياة إثارة للشجن !

وبعد كل هذا . . ماذا تفضل : حياة طويلة فاترة وخامدة . . أم حياة قصيرة مثيرة . . وحافلة بالأحداث والأجداد ؟ إذا سألتنى رأى أجبتك أنى ككل إنسان قد دعوت ربي دائماً أن أعيش حياة هادئة آلامها محتملة . . أو فى حدود احتمالى وليس يعينى بعد ذلك أكانت طويلة أم قصيرة . . حافلة أم خامدة ؟ لأمعة أم باهتة ؟ لأن لحظة واحدة من السعادة الحقيقية قد تعدل العمر كله . . وقد تعوضنا عن كثير مما أردنا لأنفسنا . . وعجزنا عن أن نحققه . . أو نناله فى رحلة العمر . وما زلت أدعو . . فشاركنى الدعاء أنت أيضاً . . ولا تسألنى هذا السؤال مرة أخرى . . !

لا تنظر خلفك !

كنت فى سنوات شبابى — حين يتبدد الأمل فجأة فى نيل ما تمنيته فى نفس اللحظة التى لاح لى فيها أنه قد بات قريب المنال منى — اتساءل متعجبا من انقلاته من بين يدى : لكنى «لم انظر خلفى » فلماذا تلاشى فى الهواء فجأة بعد أن شقيت للوصول إليه؟ ! فلا يزيدنى تساؤلى إلا معاناة ومكابدة . .

وكنست فى ذلك التمثل الأسطورة الاغريقية القديمة التى روت أن أورفيوس ابن ربة الفن عند الاغريق قد عُرف بمهارته فى فن السحر والحكمة واشتهر بسحر موسيقاه التى تطرب لها الأشجار فتتحرك وراءه وتتبعه حيث يسير . . وتتوقف الأنهار عن جريانها حين تسمع الحائنه الجميلة على القيثارة وكان أورفيوس قد أحب الجميلة يوريديسى وتزوجها . . لكن حياتها معه لم تطل فقد ماتت بلدغة ثعبان وهى تحاول الهرب من إله الصيد الذى طاردها للإيقاع بها وغرق أورفيوس فى احزانه وصمم على إعادة حبيبته الجميلة إلى عالم الأحياء مرة أخرى وهبط إلى عالم الموتى واستطاع بسحر موسيقاه أن يستولى على قلب ملك العالم السفلى فرق له واستجاب لرجائه بأن يسمح لزوجته بالعودة معه واشترط عليه شرطًا واحدًا ينبغى أن يلتزم به لتحقيق امنيته وهو أن يمضى من فوره

صاعدا إلى دنيا الأحياء واثقا من أن حبيبته تتبعه وألا ينظر خلفه ليرى وجهها طوال رحلة الصعود وإلا اختطفها الأشباح التي ستلازمها طوال الرحلة وأعادتها إلى العالم السفلي من جديد وشكره أورفيوس بحرارة . . ومضى من فوره عاكفا إلى دنيا الأحياء ويورديسى تتبعه . . لكن الرحلة طالقت قبل أن يقترب من سطح الأرض وغلبه الشوق لأن يتطلع إلى وجه حبيبته التي لم يذق طعم السعادة منذ فارقت . . فاستدار فجأة ليتأكد من أنها تتبعه . . فلم يكذب يفعل حتى اختطفها الأشباح وأعادتها من جديد إلى عالم الموتى !

وواصل أورفيوس الرحلة يائسا وعاش أيامه حزينا كئيبا . . واعتزل النساء فلم يطق النظر إلى وجه امرأة بعد ضياع حبيبته من يديه حين أوشكت على الفوز بها . . وحقدت عليه نساء المدينة لتجاهله لمن فانتهزن فرصة أحد الاحتفالات العامة وقطعنه أربا . .

وعلى مر الزمن أصبحت قصة هبوط أورفيوس إلى عالم الموتى رمزا لفكرة متشائمة تقول إن الإنسان لن يستطيع الحصول على ما يتمنى من السعادة إلا في العالم الآخر . . وإنه كثير ما تكون أقرب لحظائنا إلى نيل السعادة هي نفس اللحظة التي تنبدد فيها وتغيب عنا إلى الأبد ! . .

ولأنى لست من المتشائمين . . فلقد استخلصت من فكرة الاسطورة درساً آخر أكثر تفاؤلا هو أن تعجلنا تحقيق الأهداف قبل موعدها الطبيعي قد يؤخر وصولنا إليها ويبعدها عنا بدلا من أن يقربها منا وإنه من الحكمة إلا نبالغ في التلهف على بلوغ آمالنا في الحياة فنسهم في إبعادها عنا بها

نرتكبه من أخطاء التصرع وسوء التقدير التى تفسد علينا أهدافنا
وتبعدها عنا . .

ومن هنا كان تساؤلى الحائر حين اسعى لهدف مشروع فى الحياة ملتزما
بكل شروط ملك العالم السفلى على أورفيوس ثم يقترب الهدف . . ويلوح
قريب المنال واثمياً لاستقباله فإذا بأشباح القسمة والنصيب تبعده عنى . .
ثم علمتنى الحياة فيما علمتنى الا آسى كثيراً على شىء فأتنى . . ما دمت
قد سعيت إليه باخلاص وأدبت ما ينبغى على اداؤه للوصول إليه . . ذلك
أن تحقق الآمال بعد كل ذلك رهين بارادة الخالق وبها شطر لكل إنسان فى
اللوح المحفوظ فأمنت دائماً أن احق الناس بمعاناة الحسرة . . ليس هو من
سعى وكافح وبذل اقصى جهده للوصول إلى سعادته وإهدافه المشروعة فى
الحياة . .

والنما هو ذلك الإنسان الذى قصر فى حق نفسه ولم يسع سعياً جاداً
شريفاً وراء أهدافه . . ولم يفعل ما ينبغى عليه أن يفعله لكى يتال ما
يأمله . .

فالأول يجد مبرراً للرضا عن نفسه هو أنه لم يدع سبيلاً مشروعاً لنيل ما
اراد لكن الأقدار شاءت شيئاً آخر ففاز بشرف المحاولة وإن لم يفز ببلوغ
الأمل . . كما أن من يسعى إلى أهدافه ولا يخطئ فيتعجل الوصول إليها قبل
الأوان ولا يتعسر على ما لم ينله ، قد تدخر له الأقدار جوائزها بعد حين فيما
يمكن أن يسميه الإنسان «بالألطاف الخفية» وهى تلك التدابير الإلهية
التي قد تأتينا أحياناً بما نكره فى بعض مواقف الحياة لتحقيق لنا فيما بعد
أجمل ما نحب . .

وفي حياة كل منا لمحات أو مواقف اكتأبنا لها وشقينا بها وثقلت علينا
وربما تساءلنا بادراكنا المحدود : لماذا اختصتنا بها الأقدار وحدنا . . ثم لم
تلبث أن تكشف لنا بعد حين نتائجها الخيرة وعرفنا إن ما شقينا به لم يكن
في الحقيقة إلا «مقدمة للسرور» على حد تعبير أديب فرنسا العظيم فيكتور
هوجو وفهمنا في هذه اللحظة المعنى العميق الجليل للآية الكريمة :
«وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . . وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر
لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» . .

بل وربما تذكرنا حكاية «حائك الملابس» التي رواها المفكر الفرنسي
مونتسكيو حين قال «إن رجلا ذهب إلى دوق أورليان في فرنسا وطلب منه
الإذن له بارتداء بذلة رسمية موشاة بالقصب ليبدو شريفا وجميلا ونييلا في
أعين الناس ، ولم يكن من المسموح للعامة في فرنسا في العصور الوسطى
ارتداء أنواع معينة من الملابس بغير إذن خاص من البلاط الملكي فقال له
دوق أورليان : اسمح لك بذلك بشرط موافقة حائك الملابس» !

أى أن نيل ما يتمناه من الشرف والجمال والنبيل يتطلب ليس فقط موافقة
البلاط . . بل وأيضا موافقة حائك الملابس الذي سيصنعها له . . وموافقة
من سيعطيه المال لشراء الملابس إن لم يكن معه ثمنها . . وموافقة بائع
القماش على بيعه له الخ . . لأن تحقيق مطالبنا من الحياة لا يتوقف علينا
وحدها . . وإنما على أناس آخرين . . وعلى ظروف قد تسمح أو لا تسمح
بتحقيقها فليس يكفى أن نطلب لأنفسنا السعادة لكي تتحقق وإنما هناك
دائما «حائك الملابس» في مكان ما لابد من موافقته لكي «نرتدى» ما
تطمئن به قلوبنا . .

لهذا كثيرا ما أقول للمهمومين الذين يتعذبون برغباتهم المشروعة الملحة في السعادة والأمان ، إننا نستطيع أن نتحكم في أنفسنا لكننا لا نستطيع أن نتحكم في الآخرين الذين تشقينا تصرفاتهم وخياناتهم واحقادهم ونذاتهم وخذلانهم لنا . . وما دام الأمر كذلك فلسنا نملك إلا أن ننفذ الجزء الخاص بنا من روثة العلاج وهو أن نتغير نحن أملين أن يتغير الآخرون للأفضل أو أن تلقنهم الحياة دروس الألم فيعرفوا لنا أقدارنا وأن علينا أن نحجّم بقدر الامكان تأثير تصرفاتهم علينا فننجو من بعض المعاناة التي «يهدونها» إلينا بأفعالهم ردا على هدايا الاخلاص والوفاء التي قدمناها لهم والمهم هو أن نحدد أهدافنا ونختار من الوسائل ما يقودنا إليها وليس إلى غيرها ثم نترك الأمر بعد ذلك لمن بيده الأمر سبحانه . . فإن شاء منحنا جوائزهِ وكشف لنا عن نتائج ألطافهِ الخفية بعد حين وإن لم يشأ ادخر لنا سعادتنا المفقودة إلى أجل آخر وفي كل الأحوال . . وفي إنتظار موافقة «حائك الملابس» على تحقيق ما نريد من الأمان والسلام وراحة القلب . . فإن المهم دائما هو ألا نعانى لحظة واحدة زائدة نستطيع بحكمتنا وبفهمنا حقائق الحياة أن ننجو منها ونوفرها على أنفسنا وألا نبكى لحظة على ما فاتنا ولا يفيدنا البكاء عليه فتبلا والا نتعجل يوما ما تصبو إليه نفوسنا حتى وإن لاح لنا قريب المنال قبل أن يأذن الله بربسوه في مرافقتنا المنتظرة في صبر ورجاء . . فهل نستطيع أن نفعل حقا بغير أن ننظر إلى الوراء مرة واحدة خلال رحلة الصعود ١٩

حياة صاحبة !

هناك أشخاص تصدق عليهم كلمة الروائي البريطاني الشهير أوسكار وايلد حين قال : لقد وضعت كل عبقريتي في حياتي . . ولم أضع منها إلا القليل في كتبي ! فتأثيرهم في مجالات إبداعهم قد يكون محدوداً أو قليلاً . . لكن حياتهم عريضة وحافلة وشخصياتهم مبهرة لا تستطيع أن تمنع نفسك من الإعجاب بها والتوقف أمامها متأملاً حتى ولو اختلفت مع أصحابها . ومن هؤلاء كانت شخصية الفنان أحمد سالم الذي عرفته الشاشة البيضاء في الأربعينيات نجماً لعدد محدود من الأفلام ، وشخصية فريدة من شخصيات المجتمع المصري آنذاك . .

لقد بدأ اهتمامي به بمقالات متفرقة قرأتها عنه وكان معظمها يركز على شخصيته الفذة أكثر مما يتحدث عن فنه أو أفلامه التي أخرجها ومثلها . . ثم كان من حظي أن عرفت صحفياً قديماً كان من أقرب أصدقائه ومن أكثر الناس إنبهاراً به فتقصيت منه حقيقة ما قرأت . . فأكدته وأضاف إليه ووجدت نفسى أمام شخصية عجيبة لو صاغها مؤلف فى عمل أدبى لاتهمه النقد بالمبالغة والافتعال . . فأحمد سالم شاب ثرى ورث عن أبيه مع شقيقاته أراضى زراعية واسعة ومالاً وفيراً ، وكان منذ صباه فتى جريئاً مقتحمها يعيش حياته بانطلاق لا يعرف الحدود ولا القيود . . وقد بدأ

مغامراته بتعلم الطيران وكاد يفقد حياته ذات يوم بسبب هذه الهواية ثم استهواه عالم السينما الجديد فافتحمه بلا تردد ومثل وانتج وأخرج عدة أفلام ثم التقى بالمطربة اسمهان في فندق « الملك داود » بالقدس وهى مُبعدة عن مصر للشك في تعاونها مع المخابرات البريطانية ، فتزوجها وأعادها لمصر وعاش معها فترة قصيرة مشحونة بالقلق والخيرة والغيرة فقد كانت اسمهان على علاقة بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي في بداية الأربعينيات ، وشك أحمد سالم في خيانة أسمهان وواجهها بمواجهة عاصفة واطلق عليها رصاصة لم تصبها وهم بالانتحار فأسرعت بالفرار واتصلت بحسنين باشا لتطالبه بان يتصرف قبل أن ينتحر أحمد سالم ويتنشر الخبر ويتحول إلى فضيحة تدوى في مجتمع القاهرة . . وارسل إليه حسنين باشا ضابطا كبيرا بالشرطة كان معروفا بالنعومة وسعة الحيلة . . فحاول انتزاع المسدس من يده فأطلق عليه أحمد سالم رصاصة لم تصبه وإنما أصابته هو في كتفه ونقل إلى مستشفى قصر العيني تحت الحراسة . . وفي المستشفى تجمع حوله الأطباء الشبان الذين اجتذبتهم بسهولة شخصيته المثيرة وأصبحوا يمضون معه السهرة كل ليلة يلعبون الورق ويستمعون إلى أحاديثه الشيقة . .

و ذات مساء أراد أحدهم إن يتصرف إلى النوم قبل انتهاء السهرة لأن لديه جراحة لاستئصال الزائدة الدودية سيجريها لمريض في الصباح الباكر . . فإذا بأحمد سالم يسخر من هذه الجراحة البسيطة التي لا تستحق أن يغادر السهرة من أجلها . . والتي يستطيع أى إنسان أن يقوم بها بغير حاجة لدراسة الطب . . بل إنه هو نفسه يستطيع أن يقوم بها نيابة عنه إذا ساعده احد في اعداد المريض للجراحة ويتحداه الطبيب في إنه لا يستطيع

ولا يجرؤ على الامساك بالمشروط لاستخراج جزء من جسم إنسان . .
فيستجيب أحمد سالم للتحدى على الفور ويأمره على أنه يستطيع أن يفعل
ومستعد للرهان على ذلك ، وفي لحظة همق وجنون اتفق الطبيب الشاب
وكان من أبناء اندوات مثله وأبنا لعميد كلية الطب الذى يعتبر واحدًا من
أعلام الطب فى الشرق ، مع أحمد سالم على ان يدخل معه غرفة الجراحة
ليقوم هو بتخدير المريض وفتح بطنه ثم يسلم له المشروط ليستأصل الزائدة
متوقعا أن تخونه شجاعته فى اللحظة الأخيرة ويحجم عن مواصلة
التحدى . . ولكن هيهات أن يحجم الشاب المغامر عن شىء ولو كان ضد
كل منطق وعقل . . وفى الصباح دخل معه غرفة الجراحة وامسك بالمشروط
واستأصل الزائدة وسط ذهول الأطباء . . وانتهت المأساة بعد فترة قصيرة
ب وفاة المريض . . وتحولت الدعابة السوداء إلى كارثة تهدد مستقبل الطبيب
الشاب الذى جارى أحمد سالم فى هذا الجنون . . لكن المجاملة للأب
العميد لعبت دورها فى تكتم القضيحة وساهم فيها ضعف أسرة المريض
الفقر وجهلها بما حدث . . أصبحت المغامرة المجنونة قصة تروى فى
مجموعات المدينة وتضاف إلى سلسلة مغامرات هذا الشاب الذى لا يعرف
الحدود والسدود . .

وبعد قليل تمت تسوية المشكلة التى سجن من أجلها أحمد سالم فى
المستشفى . . وعاد للظهور فى متديات القاهرة وسهراتها . . شابا ثريا
انيقا يرتدى القميص لمرة واحدة فى حياته . . ثم يهديه لغيره . . وإنسانا
رقيقا مهذبًا ، شهيا وكريما مع الجميع لا تملك مع جراته الجنونية إلا
الاعجاب بشخصيته والتأثر بها إذا اقتربت منه ! وعاد لينافس الملك فاروق

فى قلوب فاتنات السينا والملاهى الليلية . . وسيدات المجتمع ويتعمد
انتزاع عشيقاته منه أو من يتطلع إلى كسب حبهن فتؤثره كثرات منهن على
الملك العاىث اللاهى وتتدله فى حبه ممثلة السينا المصرىة اليهودىة الديانة ،
الصارخة الجمال كاميليا التى كانت أيضا من عشىقات فاروق ، وتطارده فى
كل مكان . .

ثم قاداته مغامراته إلى اقتحام دنيا رجال الأعمال فأسس شركة
للمقاولات جعل مقرها عمارة الايموبيليا بالقاهرة . . ومارس العمل
بشخصىة البك ابن الذوات الذى يحترمه مقاولو الباطن المتعاملون معه
ويتهيبونه . . لكن دنيا الأعمال لا تستقر على حال . . وفى احدى موجات
الكساد تأخر صرف مستحققات مالية كبيرة للبك رجل الأعمال لدى
المصالح الحكومىة . . فتأخر أحمد سالم فى سداد مستحققات مقاولى الباطن
لفترة طويلة . . وصبر المقاولون من أبناء البلد لفترة ثقة فى وفاء ابن الذوات
وارث آلاف الأفدنة بديونه . . لكن الفترة طالت ، فبدأوا يتململون وكثر
ترددهم على المكتب للسؤال عن مستحققاتهم . . يتوجهون بمطالبتهم
للسكرتير الخاص ولا يجزؤون على مواجهة البك بها . . ثم طالت الفترة
وبدأت أصواتهم تعلق بالمطالبة والاحتجاج حتى بلغت مسامع البك فى
حجرتة الوثيرة وهو بين ضيوفه من الباشوات والبكوات فيكتم غيظه ويعتزم
إمرًا . .

ثم حل أخيرا موعد صرف مستحققاته الحكومىة فطلب من سكرتيره أن
يشترى حقىبة ملابس ويتوجه بها للبنك لصرف المبلغ الكبير مشرطا عليه
أن يكون كله من فئات نقدىة صغىرة ليدفع للمقاولين حقوقهم ، ونفذ

السكرتير التعليمات حرفيا وجاءه بحقيبة ملابس منتفخة فأمره بأفراغ محتوياتها على المكتب والانصراف لاستقبال المقاولين . . وبعد قليل طلب البك دخولهم واحدا وراء الآخر . . ودخل أولهم فرأى مشهدا ذهلا ! رأى البك يجلس مسترخيا في مقعده الكبير وقد مد ساقيه فوق تل عال من أوراق البنكنوت على المكتب . . وفي يده سيجار فاخر . . وما أن دخل حتى بادره البك بصوت هادئ : أهلا يا معلم فلان ، كم لك عندنا من نقود؟

فإذا بالمعلم يجيبه بعفوية : نقود إيه يا بك . . لقد جئت أسأل عن عمل جديد تكلفني به . . فقد مضت فترة طويلة لم نسعد فيها بالعمل مع سعادتك !

فيهز البك الخبير بالنفوس البشرية رأسه في ثقة ثم يعده بعمل جديد قريبا . . ويشير له بالانصراف فينصرف شاكرا ومحيا من غير أن يتقاضى مليا من مستحقاته !

ويتكرر المشهد بكل تفاصيله مع باقي المقاولين . . فينصرفون جميعا شاكرين تعطف البك عليهم ووعدده لهم بأعمال جديدة ودون أن يتقاضوا ديونهم التي علت أصواتهم من قبل للمطالبة بها ثم يغادر أحمد سالم مكتبه بعد قليل تاركا للسكرتير أن يدفع فيما بعد للمقاولين بعض مستحقاتهم . . ويوفر البعض لمطالب حياة البك الباهظة !

ويتعجب السكرتير من هذا المشهد الذي يشبه قصة مثيرة للتأمل من قصص تشيكوف . . أما هو فلم يتعجب لشيء لأن حياته المثيرة المليئة بالمفارقات والصعود والهبوط لم تترك له مجالاً لأن يتعجب لشيء . .

ثم تتوالى المفارقات الغريبة فى حياته إلى أن تبلغ قمة الهزل والاثارة حين قدم للمحاكمة فى احدى تقلبات الزمن العديدة معه بتهمة توريد صفقة خوذات عسكرية المفروض أن تكون من الصلب لتقى رءوس الجنود من الرصاص والشظايا ، لكن الفحص اثبت أن حصاة صغيرة متطايره قد تستطيع اختراقها ! وقام الخبير بتجربة عملية فى قاعة المحاكمة لاثبات ذلك فنجح فى خرق احدى هذه الخوذات بقطعة حجر صغيرة . .

وتداول القضاء القضية لفترة طويلة . . والبك يواصل حياته العجيبة بلا أى انزعاج . . وينفق الألو فى بعض الليالى . . ويشح المال فى يديه فى أيام أخرى فلا يتغير شىء فى حياته . . فهو النجم الذى يستقبل استقبال الفاتحين فى كل مكان يحل به سواء أكان مفلسا ام يتدفق المال بين يديه . . وروى لى صديقى الصحفى المخضرم الذى كان صاحب مجلة فنية معروفة ورئيس تحريرها فى ذلك الوقت ، أنه ألت بصديقى هذا ضائقة مالية عابرة فشغلت فكره وفى غمرة اكتنابه فوجئ ذات مساء بأحمد سالم يزوره فى مكتبه ومعه ٤ من أصدقائه والجميع فى ملابس السهرة السوداء الفاخرة ، ولاحظ أحمد سالم اكتنابه وعرف منه أسبابه . . فهون عليه الأمر وأصر على الترويح عنه بدعوته لتناول العشاء والسهرة معهم فى مطعم سان جيمس الذى كان من أرقى منتديات القاهرة ، فاعتذر له صديقى بأنه ليس مستعدا نفسيا لذلك ، فأصر على ألا يدعه لاكتنابه والح عليه بمصاحبتهم . . فاعتذر له بأنه مفلس وليس مستعدا ماديا فأجابه أحمد سالم بأنه مفلس أكثر منه ومع ذلك فسوف يدعوه للعشاء والشراب فأراد أن يتهرب من الدعوة ، فاعتذر له بأخر اعداره وهو أنه ليس مستعدا حتى

من ناحية الملابس فهو يرتدى القميص والبنطلون وهم يرتدون بدل السهرة الكاملة ، واعتقد أنه قد اقنعه بذلك لا محالة . . لكن هيهات أن يحول بين أحمد سالم وبين ما يريد من شيء فقد نهض صامتا وخلع في هدوء ربطة عنقه وجاكتته وشمر أكمام قميصه وأمر أصدقاءه ففعلوا مثله في ثوان . . ثم قال له : ها قد أصبحنا جميعا بالقميص والبنطلون فهيا معنا !

وخرج الجميع إلى سان جيمس واستمتعوا بقضاء ليلة سعيدة من ليالي العمر . . وانصرف أحمد سالم وهو يشير إلى رئيس الجارسونات بكبرياء بأن يضيف إلى قيمة الفاتورة عشرين جنيتها كبقشيش له . . وكان مبلغا خرافيا في الأربعينيات وأن يرسل الفاتورة إلى مكتبه لسدادها فيما بعد . . وينحني الرجل شكرا واحتراما وهو يودع البك وضيوفه حتى باب السيارة . .

وتتلاحق الفصول المثيرة في قصة حياته . . وتبلغ إحدى قممها حين يبدد معظم ما ورثه من أرض زراعية لا تخصه وحده وإنما تخص معه شقيقاته لكي يواجه تكاليف حياته الباهظة . . وبغير أن تحتج الشقيقات عليه أو ينازعنه في شيء . . أو يتأثر جبهن له واعجابهن به حتى اللحظة الأخيرة وبرغم ما بدد من ماله !

ثم تجيء النهاية الأكثر درامية لتلك الحياة العريضة الصاخبة رغم قصرها ويموت أحمد سالم في شرخ الشباب . . فهل تعرف كيف مات ؟

بانفجار في الزائدة الدودية فاجأة على حين غرة قبل أن يجري له الأطباء تلك الجراحة البسيطة التي سخر منها ذات يوم وقال أن أى إنسان يستطيع أن يقوم بها بغير حاجة لدراسة الطب . !

« وما ريك بظلام للعبيد » صدق الله العظيم . .
وانطوت بذلك صفحة عجيبة من صفحات الحياة . لم يؤلفها
مؤلف . . ولم يتدعها خيال كاتب ، وإنما ألفها الزمن «أعظم المؤلفين»
كما قال ذات يوم الفيلسوف الانجليزى فرنسيس بيكون !

ابدأ القلق .. واستمتع بالنجاح !

فى احدى القرى الصغيرة المنعزلة نشأ فتى صغير بين أبوين فقيرين جاهلين فشب خجولا متهيبا يحس بالنقص تجاه زملائه الأثرياء بالمدرسة وينعقد لسانه من الحياء إذا أراد أن يتكلم أمامهم ويتلقى نظرات الاحتقار والازدراء منهم . وكان تلاميذ مدرسته يتنافسون على الفوز ببطولات الألعاب الرياضية فحاول أن يكون من أبطال المدرسة لينال احترام زملائه وفشل . . فقرر أن يتحول إلى مجال آخر . . وانضم إلى جماعة الخطابة والمناظرات وكل أمله أن يتدرب على التغلب على خجوله وخوفه من الكلام فى مواجهة الآخرين . . فلم يمض وقت طويل حتى كان قد تغلب على حياته وتفوق فى الخطابة واللقاء وفاز بالمركز الأول فى مسابقة المدرسة . . فتغيرت نظرة زملائه إليه وأصبحوا يحترمونه ويتقربون إليه . وعرف من هذه اللحظة إن الاحترام قرين التفوق فى أى مجال من مجالات الحياة وإن الخوف والقلق اللذين يسيطران على الإنسان يكبلان قدراته على مواجهة مشاكله . .

وبعد إن أنهى دراسته الثانوية التحق بمدرسة لدراسة فن الالقاء وعمل مدرسا للالقاء بمدرسة ليلية يلقي على تلاميذه من الكبار دروسا فى كيفية التغلب على الخجل والخوف والتعبير على أنفسهم بغير اضطراب . .

ونجحت دروسه واجتذبت عددًا كبيرًا من الدراسين . . فحدد ذلك طريقه في الحياة واستقال من المدرسة وافتتح لنفسه معهدًا صغيرًا يحمل اسمه يعلم فيه الدراسين كما قال هو : كيف «يَكْفُون» عن القلق والخوف ويؤثرون في الناس فلم تمض أعوام قليلة حتى كان لمعهد الصغير هذا أكثر من ١٧٠ فرعًا في أنحاء أمريكا وكندا وبعض دول أوروبا وحتى أصبحت كتبه ومناهجه واسعة الانتشار في كل مكان .

وكان الشاب الناجح قد ألف ٤ كتب لم تلق رواجًا يذكر وعندما افتتح معهده بحث عن كتاب يصلح أساسًا للدراسة فيه فلم يجد فاضطر لأن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ثم دفعه للمطبعة وهو يرجو له حظًا أفضل قليلًا من حظ كتبه السابقة فإذا بكتابه هذا يطبع ٧٠ طبعة خلال عدة سنوات ويترجم إلى أكثر من ٦٠ لغة ويصبح من أكثر الكتب انتشارًا في العالم وهو كتاب «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس» .

وبعد قليل بحث عن كتاب يصلح أساسًا لتعليم الناس كيف يتغلبون على القلق والخوف فلم يجد كتابًا ملائمًا فظل ٧ سنوات يقرأ ويجمع الحكيم والأمثال والمبادئ التي وردت على ألسنة الأنبياء والحكماء والفلاسفة وتصلح لأن تكون علاجًا للقلق ، وقرأ مئات من قصص حياة العظماء ثم صاغ كل ذلك في كتاب عرف في العربية باسم «دع القلق وأبدأ الحياة» فأصبح هذا التعبير شائعًا في كل مكان .

وحين سأله عن سر نجاح معاهده وذيوع كتبه قال ببساطة إنه أشد الناس اندهاشًا لذلك لأنه لم يفعل أكثر من تذكير الناس بالمبادئ التي جاء بها الأنبياء وأقوال الحكماء التي تساعد الآخرين على أن يعيشوا في

القلق كانت وما زالت من أنجح الروشتات العملية
وهي روشته طويلة تبدأ بأن نقتنع بأن كراهيتنا للآخرين لا تؤذيهم في
شيء وإنما تؤذينا نحن وتحيل أيا منا إلى جحيم . . وإن أعداءنا سوف
يرقصون طربا إذا عرفوا كم يسببون لنا من ضيق وقلق فإذا كان الأمر كذلك
فلماذا نيلهم مأربهم منا ونشغل بهم وبضيقنا منهم .
وتتضمن بعد ذلك عدة مبادئ عامة منها : عش في حدود يومك . .
لا تفكر في الأمس لأن تفكيرك فيه وحزنك عليه لن يغير من امره شيئا ،
ولا تفكر طويلا في الغد وتغتم له . . فأنت لا تستطيع أن تعبر جسرا قبل
أن تصل إليه ، وهمك الشديد بالغد لن يورثك إلا الخوف والقلق والمرض .
أما أفضل طريقة للاستعداد له فهي أن تركز نشاطك وحاسك في إنهاء
عمل اليوم على خير وجه . . وبذلك تكون قد «فكرت» في الغد
واستعددت له دون خوف ولا وجل .

أما إذا واجهت أية مشكلة . . فلا تستسلم للقلق وإنما اسأل نفسك
هذه الأسئلة : ماهي المشكلة على وجه التحديد . . ما هي أسبابها . . ما
هي كل الحلول الممكنة لها . . ما هو أفضل هذه الحلول . . ثم اختر
أفضل الحلول المتاحة . . وحين تتخذ قرارك بعد الدراسة لا تتردد في تنفيذه
ولا تضيع وقتا في القلق والخوف . ومن ناحية أخرى فأفضل ما تفعل حين
تواجه أى مشكلة وتجد نفسك قد استسلمت للقلق والخوف وحرمت من
النوم . . هو ان تسأل نفسك : ما هو اسوأ شيء يمكن أن يحدث نتيجة
هذه المشكلة ؟ ثم تهين نفسك لقبول الاحتمال الأسوأ . . وتحرك على
الفور لانقاذ ما يمكن انقاذه . . سوف تكتشف غالبا أنك قد تضاديت

أسوأ النتائج لأن مجرد قبولك لها قد أعاد لك صفاء تفكيرك . . وتحركت
لحل المشكلة فنجحت في ذلك أو في معظمه . .

دمر القلق قبل أن يدمرك . . وأفضل طريقة لذلك هي الانشغال عما
يخيفك ويثير قلقك بالاستغراق في ممارسة أى عمل يتطلب التركيز والتفكير
والابتكار . . لأن الذهن البشرى مهما كان عبثياً لا يستطيع أن ينشغل
بأكثر من أمر واحد في وقت واحد .

وقبل كل ذلك وبعده تذكر دائماً ماذا يصنع احساس القلق والخوف
بالإنسان؟ إنه يصيبه باضطرابات القلب وقرحة المعدة وضغط الدم
والتهاب المفاصل وزيادة نشاط الغدة الدرقية وآلام الأسنان والقولون . .
وأحياناً يؤدي إلى الانتحار فما هو هذا القلق الذى يهدد الإنسان بكل هذه
الأهوال؟

إنه انفعال يتسم بالخوف والتوجس من أشياء متوقعة أو مرتقبة تحمل
لنا تهديداً حقيقياً أو مجهولاً . . وحالة وجدانية غير مريحة تسيطر على
الإنسان أحياناً يرى معها أخطاراً غير حقيقية أو متوقعة من مصدر غير
معلوم .

والقلق أنواع ودرجات . . ولا يخلو إنسان من درجة من درجاته كما أنه
ليست كل أنواعه ضارة ولا فتاكة بجسم الإنسان وأعصابه إلى هذا الحد .
بل إن هناك نوعاً منه لابد لكل إنسان ناجح وكل إنسان طبيعي أن يتسلح
به عند الضرورة . . وهو القلق الذى يسميه الأطباء بالقلق الدفاع . .
القلق الذى يملك الإنسان قبل مواجهة موقف يتطلب شحذ قدراته
لاجتيازه كالتردد لامتحان دراسى . . أو لامتحان لشغل وظيفة . . أو

لمقابلة شخصية هامة يتوقف على لقائنا بها الفوز بها نريد . . أو تفادى العقاب والمحاسبة الخ . أو عند اتخاذ الإنسان لقرار هام في حياته .
ففى كل هذه الحالات يحس الإنسان بالقلق ويتوتر . . لكن قلقه هنا قلق إيجابى مفيد وليس ضاراً وهو قلق مؤقت . . ومعتدل . . ويشحذ طاقات الإنسان لمواجهة الموقف المرتقب وينشط امكانياته ، لهذا فهو قلق صحى مطلوب كقلق الفنان الذى يدفعه لإخراج أفضل ما عنده ، وافتقاد هذا النوع من القلق فى الوقت المناسب يُعد مؤشراً غير صحى . . ويؤدى إلى التراخى والكسل والغرور والثقة الزائدة بالنفس . . وبالتالي إلى الفشل .
أما القلق المفترس فهو القلق «العصابى» المرضى الذى يشل قدرة الإنسان على الحركة والتفاعل مع الحياة . . وهو انفعال مبالغ فيه بمواقف وأشياء لا تستدعى بالضرورة كل هذا الانزعاج وقد يتزايد فيصيب الجسم بالشعريرة والارتجاف وتتوتر عضلات الجسم وليس أعصابه فقط . . وقد يتطرف فيصل إلى حالة من الذعر غير المفهوم . . ويحرم الإنسان من النوم والراحة وهو رفيق ملازم للخوف والوساوس والاكتئاب .
فإذا سمعت من يقول لك : دع القلق . . فاعلم أنه يقصد هذا القلق العصابى الضار . .

أما إذا سمعتنى أقول لك : ابدأ القلق . . واستمتع بالنجاح فأعرف أنى أنشد لك القلق الايجابى الدافع الذى يطلق مواهبك وقدراتك وعبقريتك . . ويحرر طاقاتك الكامنة ويساعدك على مواجهة المواقف . . وما دام الأمر كذلك فاقلق يا صديقى باعتدال ولا تخش شيئاً . . والعاقبة عندك فى النجاح والسعادة . . وتحقيق الأحلام . .
إن شاء الله .

مجرد سوء تفاهم !

غادر الشاب بلدته الصغيرة المظلمة معظم شهور السنة إلى الدنيا الواسعة . . لم يحتمل البقاء في هذه البلدة الكثيبة التى لا تعرف الشمس ولا يدخلها زوار كثيرون . . والحياة فيها راكدة ومملة . . فتسلل من الفندق الصغير شبه المجهور الذى تملكه أمه بغير وداع ورأى اخته الطفلة الصغيرة تلعب فى الفناء فلم يتوقف لوداعها خوفاً من أن يضعف ، ومضى إلى محطة القطار ، كان عمره ١٨ عاماً . . وكان أبوه قد رحل عن الحياة منذ ٥ سنوات وقرر أن يحقق طموحه بعيداً عن أسرته . فركب القطار إلى الميناء البعيد . . وركب الباخرة من الميناء إلى قارة بعيدة تشرق فيها الشمس معظم شهور السنة .

ولاطم أمواج الحياة ولاطمته . . واستقر فى النهاية فى إحدى المدن . . وحقق نجاحه . . وتزوج من فتاة أحبها وأحبته وصنع ثروة كبيرة ، ومضى على زواجه ٥ سنوات سعيدة ثم توقف فجأة وسأل نفسه ماذا ينقصنى ؟ وأجاب على سؤاله :

أنا سعيد . . لكن السعادة وحدها ليست كل شىء . . فهناك أيضاً واجبات لابد أن يؤديها البشر لكى ينعموا بسعادتهم . . وواجبى الآن هو

أن أجد أمى وأختى وإن يكون لى وطن ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في المنفى إلى النهاية .

وقرر إن يعود إلى القارة التى هاجر منها . . والبلدة التى غادرها منذ عشرين سنة ، يبحث عن أمه وأخته ويحمل لهما معه الأحلام والثروة والسعادة .

ورافقته زوجته في رحلته الطويلة . .

وطوال الطريق وهو يفكر كيف سيكون لقاءه الأول مع أمه وأخته . . وكيف يقدم نفسه لأمه . . هل يقول لها : هأنذا قد عدت . . أنا ابنك ! أم ينتظر أن تتعرف هى عليه وتسارع إلى عناقه . . وأخيراً قرر أن يعد لها مفاجأة وأن يقيم في فندقهما الصغير كأي نزيل عادي ويرقبهما عن قرب ويرى هل ستتعرف عليه أمه أم لا ثم يحاول التقرب منهما والحديث إليهما طويلاً ، ويبقى ليلته في فندقهما الصغير وفي الصباح وعلى مائدة الافطار يلقي أمامهما بالمفاجأة ويعدهما بالسعادة وتحقيق الأحلام .

ولكى ينفذ خطته طلب من زوجته انتظاره في فندق بعاصمة المقاطعة ، وسافر وحيداً إلى البلدة الصغيرة ، ودخل الفندق فرأى السيدة العجوز التى تقف خلف طاولة الاستقبال وتقدم منها بتهيب وتفحصها طويلاً ، ثم طلب منها غرفة بالفندق وكوبا من الجعة قدمته له مع مفتاح الغرفة ، وتحدثت إليه قليلاً ، ثم جاءت ابنتها وحاول أن يتحدث معها بلهفة . . فعاملته بتحفظ وجفاء وطلبت منه ألا يتجاوز حدود ما سمته «الغة الزبائن» أى الحديث عن الجنو والفندق ومواعيد الطعام ، وجفل العائد من جفائها . . لكنه أصر على أن يواصل اللعبة «سى» نهايتها واختفت

المرأتان في الداخل . . ففوجئ بزواجه وقد لحقت به لأنها لم تطق البعد عنه بعد ٥ سنوات لم يفترقا خلالها ليلة واحدة ، وأقنعها بصعوبة شديدة بأن تعود من حيث جاءت حتى لا تفسد لعبته الأخيرة ، فانصرفت الزوجة كارهة ، وصعد إلى غرفته وبعد قليل جاءته أخته التي لا تعرفه بكوب من الشاي . . ودهش الرجل فهو لم يطلبه . . واعتذرت الفتاة بأن خادماً الفندق قد فهم خطأ أنه يريد شاياً وأبدت استعدادها للعودة به ، لكنه خجل أن يدعها تنصرف حاملة صينية الشاي فطلب منها تركها على المائدة آملاً أن يخفف ذلك من نفورها منه ، فتركته وانصرفت ، واحتسى الشاي مجاملة لأخته التي لا تعرفه .

وبعد قليل أحس برغبة في النوم . . فنهض ليتجه إلى فراشه . . لكنه لم يصل إليه فقد سقط على الأرض ، وفتحت المرأتان باب الغرفة ودخلتا ، وتعاونتا على حمله وإخراجه من الباب الخلفى للفندق إلى شاطئ التربة القريبة . . ثم القياه فيها ، وعادتا إلى غرفته تبحثان عن نقوده وأوراقه وساعته !

لقد كانتا هما أيضاً تحلمان بمغادرة هذه البلدة المظلمة الكثيبة . . وتريدان جمع المال الذي يمكنهما من الهجرة والحياة في مدينة على شاطئ البحر، يستمتعان فيها بالشمس والضوء والصخب بعيداً عن هذه البلدة المهجورة .

لكن وسيلتهما إلى السعادة اختلفت عن الوسيلة التي حقق بها الابن المهاجر سعادته فلقد اختار أن يهاجر ويكافح ويصنع نجاحه وثروته أما هما . . فلقد اختارتا الجريمة . . ونفذتاها من قبل في بعض نزلاء الفندق

القليلين وكانت مواصفات الضحية دائيا واحدة هي أن يكون نزيلا وحيدا وغنيا وقد انطبقت الشروط على هذا النزير الجديد فقررتا أن تكررنا قصة الجريمة وقررتا أن تكون المرة الأخيرة . . فلقد قارب المبلغ على الاكتمال .

. . وكانت الجريمة الأخيرة فعلا . . فلقد عرفت الأخت شخصية شقيقها من جواز سفره . . واطلعت أمها على الكارثة . . فأسرعت الأم إلى شاطئ التربة والقتت بنفسها وراءه لتغرق معه أما الأخت فلقد قررت أن تنهى حياتها في غرفتها . . وقد فقدت الاحساس بكل شيء حتى الحزن . ثم جاءت زوجة الابن تستفسر عن زوجها فصدمتها أخته بالحقيقة المروعة بهدوء قاتل وتركته لتنفيذ آخر جرائمها وتغتال نفسها .

هذا هو ملخص مسرحية سوء تفاهم للكاتب الفرنسي الذي فاز بجائزة نوبل قبل مصرعه ألبير كامى ، وقبل أن تشعر بالارتياح لأنها مجرد قصة من نسج الخيال وليست واقعا مفرعا . . أبادر بأن أقول لك أن كامى قد بنى هذه المسرحية على حادثة حقيقية وقعت في إحدى قرى تشيكوسلوفاكيا ونشرتها الصحف وقتها ، والاختلاف بين مسرحية كامى والقصة الحقيقية هو في مصير القاتلتين ، ففي الجريمة الواقعية شنقت الأخت نفسها في غرفتها فور علمها بالحقيقة ، أما الأم فقد أصابتها لومة من الجنون المؤقت فاعترفت بكل شيء وبجرائمها السابقة وحوكمت ، لكن كامى اختار للائنتين أن تنتحرا بأيديهما ربما تنزيها للأم عن أن تقبل الاستمرار بين الأحياء بعد أن عرفت أنها قد قتلت ابنها الشاب الذى عاد ليسعدها ويتشلها من حياتها المملة . .

ويرى ألبير كامى أن قتل الابن قد حدث بسبب سوء تفاهم يتحكم

في المصير الإنساني وهو في رأيه قانون يسود العالم !
ذلك أن أحد أسباب شقاء البشر في رأيه أنهم لا يعبرون عن أنفسهم
ببساطه وأنهم يفضلون غالبًا أن يحيطوا أنفسهم بالغموض .
فلو أن هذا الابن قد نطق بكلمة واضحة وصريحة لما وقعت الجريمة
وعلى أية حال فإن المسرحية تجسيد غريب لشوق الإنسان الدائم إلى
السعادة في عالم يريد كامي أن يقول لنا . . أنه لم يخلق موطئًا للسعادة !
وسواء اتفقت معه في ذلك أو لم تتفق فلا شك أن من أهم أسباب سوء
التفاهم الإنساني الذي يجلب الشقاء هو أن وسائل الأفراد لتحقيق
سعادتهم الخاصة قد تتعارض أحيانًا مع وسائل الآخرين للوصول إلى
السعادة أو الاحتفاظ بها . . فاللص الذي يسرق مال غيره قد يرى في
حصوله عليه سعادته لكنه في نفس الوقت يشقى من سلبه ماله بنفس
القدر ، والرجل الذي يتطلع إلى امرأة غيره يرى في نجاحه في الفوز بها
سعادته لكنه يُشقى بهذه «السعادة» آخر بنفس الدرجة وربما أكثر ، والمرأة
التي تحلم باقتناص زوج غيرها ترى سعادتها في تحقيق هدفها . . لكنها
تُشقى أخرى بنجاحها هذا في نفس اللحظة والموظف الذي «يحفِر» تحت
مقعد غيره بالدسائس والنميمة لكي يتهاوى المقعد ويفوز هو بمنصب
صاحبه يرى في نجاحه في ذلك سعادته . . لكنه أيضًا يُشقى بذلك
غيره . . وهكذا .

ولكن السعادة في تقديرى ليست طريقًا مخفوفًا بالأشواك إلى هذا الحد
دائمًا والسعادة في البداية والنهاية استعداد شخصي . . فإذا توفر هذا
الاستعداد عند إنسان ما فإن عوارض الحياة الطارئة من ثروة ونجاح ومرض

وازمات إنها تزيد أو تقلل من سعادته وإن لم يتوفر عند إنسان فإن هذه العوارض نفسها إنها تزيد أو تقلل من شقائه لأن الأصل عنده هو الشقاء وليس العكس .

وعند المفكر الفرنسى مونتسكيو فإن الأشتياء نوعان ، الأول مصاب «بفشل الروح» الذى يجعل من المستحيل أو من الصعب على أى شىء فى الحياة من ثروة أو نجاح أو جمال أن يحرك روح الإنسان ويشعر بقيمة الأشياء وجمال الحياة .

والثانى : هو النوع المصاب بعذاب الرغبة فى كل شىء . . وفيما لا تؤهله قدراته للوصول إليه ، وأمثال هذا النوع فى رأى هم الذين يجرون دائما وراء أهداف متحركة لا يصلون إليها أبدا وكلما اقتربوا منها ابتعدت عنهم بلا نهاية !

أما السعداء فهم أيضا نوعان ، الأول يرغب فى أشياء بسيطة تؤهله امكانياته وقدراته للحصول عليها ، والثانى نوع جهازه الإنسانى منضبط بدقة على التوافق مع الظروف المحيطة به ويرضى دائما بحياته وبكل ما تحمله إليه الحياة .

والرغبة فيما لا تؤهلنا الحياة لنيله هى دائما بداية الطريق إلى المعاناة ، لكن الحياة من ناحية أخرى بلا هدف مشروع يتوافق مع قدرات الإنسان ولا يتصادم بقدر الامكان مع أهداف الآخرين هى الجحيم بعينه !

فكل النماذج التى أشرت إليها لا تسعى إلى سعادة حقيقية دائما . . لأن السعادة الحقيقية هى التى لا يحس الإنسان معها بوخز الضمير لأنه اغتصب حق غيره . . أو لأنه أقام سعادته على انقراض سعادة الآخرين أو

لأنه استخدم وسائل غير مشروعة في تحقيقها . .
كما إنها ليست عسيرة المنال كما يصورها لنا كامى المتشائم .
فلكل إنسان سعادته الخاصة التى لا يدرك أحد سرها والتى تتفاوت
من شخص إلى آخر . . كما انه ليست هناك على وجه الأرض سعادة كاملة
من كل الجوانب . . فلكل إنسان دائما من حظه بعض ما يسعده ومن همه
بعض ما يشقيه ، والإنسان السعيد حقا هو الذى يرضى بأقداره ويسعى
لتغيير ما يستطيع تغييره من ظروفه ويتقبل ما لا يستطيع تغييره منها
ويتواءم معه .

فتحديد الهدف يشغل الإنسان ويبرر له حياته ومعاناته ، والنفس التى
لا يشغلها شىء أو هدف تحس الملل والسأم ومن ثم بالشقاء ولو كان
صاحبها يتقلب فى النعيم اذ أن صفات النفس البشرية كما يقول لنا
مونتسكيو أن تظل فى تفكير مستمر وإنه لو انقطع هذا التيار المستمر من
التفكير فإن الإنسان يحس بالملل والشقاء ويفتقد الحماس للحياة .
أما أكبر ما يحول بين الإنسان والسعادة فى رأيه فهو أنه يريد أن يكون
كالله قادرا على كل شىء !

وهذا مستحيل بالطبع

وحاشا لله أن يكون مثله أحد ، يقول للشىء كن فيكون
لكنها النفس البشرية المعذبة دائما برغباتها المعقولة منها أو غير المعقولة
أحيانا .

ولكنه الإنسان الذى قد يتوصل أحيانا إلى أهدافه بقتل ابنه وهو لا
يدرى كما فعلت تلك المرأة الآثمة وابنتها .

ثم يجيء البير كامى بعد سنين ليقول لنا فى مسرحيته أنه مجرد سوء
تفاهم متأصل يحكم المصير الإنسانى .
. . وأنه غموض الإنسان وتعمره عدم استخدام لغة واضحة فى
حياته !
ألف لعنة على الإنسان . . إن كان حقا كذلك !

أوه .. باردون !

أريد أن أعترف لك بسر شخصي . . هو أنني لا أكره في الدنيا شيئاً
كما أكره التعصب الأعمى لرأى أو فكر أو عقيدة . . ولا احتقر أحداً كما
احتقر الإنسان المتعصب الذى لا يرى الحق إلا فى جانبه . . ولا الباطل إلا
فى جانب الآخرين . .

لهذا فإننى لا أحكم على الناس بمناصبهم ولا ملابسهم الأنيقة أو
ثرائهم العريض وإنما بعقولهم وسعة افقهم ومدى احترامهم لآراء الآخرين
وتسليمهم لهم بحقوقهم فى الاختلاف معهم فى الرأى أو العقيدة بغير أن ينال
ذلك من حقوقهم ولا من كرامتهم .

ورأى فى ذلك أن المتعصب هو إنسان قد اختار بارادته أن يعطل عقله
ويوقفه عن التفكير واستقبال المؤثرات المختلفة وإن يشل قدرته على
استكشاف وجه الصواب فى آراء الآخرين والاستفادة بها . . فكيف احترام
من يهتم بغذائه وشرابه وملابسه ثم لا يهتم بتلقيح عقله بآراء الآخرين أو
من ليس قادراً على التنازل عن رأيه إذا ثبت له خطؤه ، أو من ليس قادراً
على الفصل بين الأشخاص وبين آرائهم التى يختلف معها فيحاور
أفكارهم ويقبلها أو يرفضها بغير أن يرفض هؤلاء الأشخاص أو ينقص
احترامهم لهم .

إن الإنسان المتنور هو الذى يؤمن بأن رأيه صواب لم يثبت بعد خطؤه . . وقد يتبين له خطؤه إذا ظهرت فيما بعد دلائل عقلية قوية تؤكد ذلك ، وبأن رأى غيره خطأ لم يثبت بعد صوابه وقد يتبين صوابه إذا ظهر من الحقائق ما يؤكد ذلك . وإنه من التقاء الآراء وتجاوزها قد يظهر الصواب الأقرب إلى الصحة واليقين .

إن هذه هى سمة الإنسان واسع الأفق الباحث عن الحقيقة . . أما الإنسان ضيق الأفق فهو «متأكد جداً» من كل شىء . . ومن أنه على حق وانك على خطأ ، وقد يتصرف ويتحرك ويجادل ويخاصم ويعتدى على أساس من هذا «اليقين» المزيف الذى قد يثبت خطؤه بالحوار المنطقى العاقل .

لهذا كان الفيلسوف البريطانى برتراند راسل يقول : إن الأغبياء متأكدون جداً . . أما الأذكياء فيملؤهم الشك دائماً ! أى الشك فى احتمال أن يكون ما يعرفون غير صحيح وهذا فهم فى بحث دائم عن الحقيقة . ومن قبله بقرون عديدة كان الامام أبو حنيفة النعمان رغم علمه وفضله لا يفترض فى رأيه أنه الصواب دائماً وإنما كان يقول فى تواضع العلماء الحقيقيين : قولنا هذا رأى . . وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه كان أولى بالاتباع منا .

وقد سئل مرة : هذا الذى تفتى به الناس أهو الحق الذى لا شك فيه؟ . . فسكت قليلاً ثم أجاب متحيراً : والله لا أدرى . . لعله الباطل الذى لا شك فيه !

بل إنه قال ذات مرة لأحد تلاميذه : ويحك يا يعقوب . . لا تكتب كل

ما تسمعه منى . . فانى قد أرى الرأى اليوم فأتركه غدا وأرى الرأى غدا
فأتركه بعد غد !

فإذا كان هذا هو موقف عالم جليل كأبى حنيفة فكيف يتصور أحد أنه
يحتكر اليقين وحده ، وإن كل من عداه مخطئون ؟

إن اختلاف الآراء من طبيعة البشر . . وهو من أول ما يميز المجتمعات
الإنسانية عن مجتمعات الحيوان والنباتات ، فالحيوانات لا تتحاور ولا
تختلف آراؤها ، وإنما البشر وحدهم الذين يفعلون ذلك لأن الله سبحانه
وتعالى قد خصهم بالعقل ويميزهم به عن غيرهم من الكائنات . ولأن لنا
عقولا فلا بد لهذه العقول ان تعمل وأن تفكر ، وبالتالى لابد أن تختلف آراء
أصحابها . . بسبب حقيقة بديهية يعبر عنها الشاعر الألمانى جوته بقوله :
إذا كان من النادر أن تجد بين أوراق الشجر ورقتين متشابهتين تمامًا في
كل خصائصهما . . فلا عجب إذن في أنه يندر أيضا أن تجد بين البشر
اثنين تتفق آراؤهما وأساليب تفكيرهما تمام الاتفاق !

ومأساة كل متعصب في أى مكان وزمان ، هى أنه ينطلق من مواقف
ثابتة يتصور إنها وحدها اليقين الذى لا شك فيه وليس من حق الآخرين
أن يختلفوا معه فيه . . ومأساة الآخرين معه هى أنه يراهم دائماً على
«الباطل» الذى لا شك فيه ، وقد يتحرك ويتصرف على أساس «يقينه»
هذا ولا يعرف الحقيقة غالباً إلا بعد أن يتعذر اصلاح الأخطاء أو الاعتذار
عنها .

ولقد روى الفنان العظيم شارلى شابلن في مذكراته إنه زار اليابان قبيل
الحرب العالمية الثانية فحدث خلال زيارته أن إغتال تنظيم عسكري سرى

رئيس وزراء اليابان واضطر لقطع زيارته والعودة لأمريكا ، ثم جرت محاكمة التنظيم الارهابى فيها بعد فاعترف قاداته بأنهم أعدوا خطة لاغتيال شابلسن أثناء زيارته لليابان لسبب عجيب هو أنهم كانوا يدعون للحرب ضد أمريكا ويريدون توريث الحكومة اليابانية فى أزمة مع الولايات المتحدة تدفعها لاعلان الحرب على اليابان ، ففكروا فى اغتيال شابلسن باعتباره فنانا أمريكيا محبوبا على أمل أن يغضب ذلك أمريكا ويؤدى إلى توتر العلاقات معها .

وليس فيما رواه شابلسن فى حد ذاته أمر غريب على التنظيمات العسكرية الارهابية لكن الغريب حقا هو ما كتبه شابلسن فى مذكراته تعليقا على ذلك إذ قال : وأنى لأتصور موقف هؤلاء الارهابيين لو كانوا قد اغتالونى ثم اكتشفوا حقيقة بسيطة هى أنى فى الواقع مواطن انجليزى ولست أمريكيا كما يعتقدون وأرادوا الاعتذار عن سوء الفهم «البسيط» هذا . . فرفع أحدهم قبعته لجثتى المضرجة بدمائها ثم قال بأدب : أوه . . باردون ! وهذه بالضبط هى كارثة أى متعجبر أو متعصب وكارثة الآخرين معه . . وهو أنه قد بينى موافقه على أسس خاطئة ومعلومات قاصرة وجهل فاضح ثم ينهش الآخرين بما هو متأكد منه تأكد الأغبياء . . ولا يستطيع أن يعتذر عن خطئه إلا بعد الكوارث والملمات . . هذا إذا اعتذر أصلا ولم يصر على ضلاله حتى النهاية .

لقد كان أبو حيان التوحيدي يقول إن الحقيقة أكبر من أن يدركها عقل واحد ويضرب لذلك مثلا بأنك إذا وضعت عشرة أشخاص مكفوفى البصر أمام فيل ضخمة وطلبت من كل منهم أن يلمس الجزء الذى أمامه ثم

يصفه لك لقال لك الأول هذا عاج ، وقال الآخر : هذه شجرة ، وقال الثالث هذا حائط ، وكل منهم مصيب في حدود ادراكه للمحسوس الذى أمامه ، لكنهم إذا تبادلوا الرأى فيما أدركه كل منهم ولم يصر كل منهم على أن ما أدركه هو وحده الصواب الذى لا شك فيه لتوصلوا معا إلى أن ما أمامهم هو فيل أو على الأقل : حيوان ضخم لا نعرف اسمه !

وأفة كل متعصب تعصبا أعمى لرأى أو فكر أو عقيدة ، هى أنه يحكم على الأشياء بادراكه المحدود للأشياء وحده . . وينظر للحياة من ثقب ابرة ضيق هو ثقب رأيه وحده ويرفض أن ينظر للحياة نظرة شاملة تتسع لترى كل شىء . . وتتقبل كل شىء . . فيعرف أنه لا يحتكر الحقيقة وحده وإن من حق الآخرين أن يفكروا ويعبروا ويختلفوا معه وعنه فى الرأى والفكر والعقيدة وفى أسلوب الحياة .

وإذا كان الأمر كما شرحته لك . . فهل ترى معنى إنه ليس من قبيل الصدفة ذلك التشابه اللغوى العجيب بين كلمة «متعصب» . . وكلمة «عصبى» . . أى سريع الانفعال طائش العقل ؟

أو بينها وبين كلمة «عصاب» وهو إصطلاح يستخدم للإشارة إلى مجموعة من الأمراض النفسية والعقلية .

ثم هل تعذرني بعد ذلك فى كراهيتى للتعصب والمتعصبين من كل الأديان وكل المذاهب وكل الأجناس والأنواع ؟

الفهرس

٥	قل لى . . من فضلك !
١٤	أرجوك لا تفهمنى !
٢١	فعلتها !
٢٩	أنت «حكاية كبيرة» !
٣٥	إلهام زعلانة !
٤٣	الجدران العالية !
٥٠	سنة حلوة . . يا جميل !
٥٩	والشوق مركبى !
٦٥	ثم انتصار !
٧٢	مويتاج يا دنيا !
٧٨	فات الأوان ؟ . . لا لم يفت ؟
٨٤	دعونى وحدى !
٩٥	«شمعدان» . . كل إنسان
١٠١	عفوًا . . لقد نسيت !
١٤٩	

١١٠	قصيرة .. ولكن حافلة !
١١٧	لا تنظر خلفك !
١٢٣	ابدأ القلق .. واستمتع بالنجاح !
١٣٠	مجرد سوء تفاهم !
١٤٤	أوه .. باردون !

صدر للمؤلف

- ١ - اصدقاء على الورق قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٨٦ (نقد)
- ٢ - يوميات طالب بعثة ادب رحلات الطبعة الأولى ١٩٨٧ (نقد)
- ٣ - متاف المعذبين قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٨٨ (نقد)
- ٤ - صديقي لا تأكل نفسك مقالات وصور أدبية الطبعة الأولى ١٩٩٠ (نقد)
الطبعة الثانية ١٩٩١ (نقد)
الطبعة الثالثة ١٩٩٣
- ٥ - نهر الحياة قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٩٠
الطبعة الثانية ١٩٩٣
- ٦ - العصافير الحرساء قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٩١
الطبعة الثانية ١٩٩٣
- ٧ - صديقي ما أعظمك مقالات وصور أدبية الطبعة الأولى ١٩٩١
الطبعة الثانية ١٩٩٣
- ٨ - العيون الحمراء قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٩٢
الطبعة الثانية ١٩٩٣
- ٩ - افتح قلبك مقالات وصور أدبية الطبعة الأولى ١٩٩٢
- ١٠ - اندهش يا صديقي مقالات وصور أدبية الطبعة الأولى ١٩٩٢
- ١١ - أزواج وزوجات قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٩٣
- ١٢ - أرجوك لاتفهمني قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٩٣
- ١٣ - رسائل محترقة قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٩٣
- ١٤ - وقت للسعادة . . وقت للبكاء مقالات وصور أدبية الطبعة الأولى ١٩٩٣
- ١٥ - نهر السعادة والشقاء قصص إنسانية الطبعة الأولى ١٩٩٣

رقم الإيداع ٩٣ / ٢٠٦٠
I.S. B.N 977 - 09 - 0129 - 6

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

ارجوك لا تفهمنى

لا تصدقنى إذا قلت لك مرة أننى جلست لأكتب مقالا فأخذتنى «نشوة الكتابة» ولم أشعر بالوقت وهو يسرقنى . . فالحق أنى لا أكره شيئا فى الحياة مثلما أكره الكتابة . ولو تُركت لى نفسى ما جلست إلى مكتبى إلا لأقرأ واستمتع بها عانى غيرى لكى يسطره على الورق . . وليس هناك بالنسبة لى شيء اسمه نشوة الكتابة وإنما هناك شيء اسمه عناء التفكير «وغلب» التدقيق فى كل كلمة وشقاء الرجوع للمراجع لتوثيق أى معلومة تأتى عرضا فى مقالى . . ثم هناك بعد كل ذلك عذاب الشك فى قيمة ما كتبت وقلق الخوف من ألا يستحق عناء القراءة أو قبول القارئ له أو استحسانه !

ورغم أن كتابى الحادى عشر قد صدر لى منذ أيام . . فلانى لم أخلص بعد من وساوسى تجاه ما أكتب ولم أجلس مرة لأكتب دون أن يراودنى خاطر جميل أشبه بالحلم استسلم له كثيرا . . هو أننى قد وجدت لى نفسى «عملا» آخر بعيدا عن هذا العناء مع أنى لم أتحيل لى نفسى منذ كنت فى الرابعة عشرة من عمري حياة أخرى بعيدة عن دنيا القراءة والكتابة ولا أصلح لممارسة أى شيء آخر فى الحياة سوى هذا الشقاء الأبدى . .

فهل عندك - بعد أن تقرأ هذا الكتاب - حل آخر لهذه المشكلة ؟!

عبدالله مطوع